

وملحق عن انطباعات الفيتناميين عن أوروبا

ريتشارد كورتمبارت



ترجمة : أ. الطيب الوراري

انطباعات رحالة ياباني عن فرنسا

وملحق عن انطباعات الفيتناميين عن أوروبا

جمع ريتشارد كورتمبارت
(1864)

ترجمة: أ. الطيب الوراري
مراجعة: د. ماهر تريمش

نبذة عن المؤلف:

ريتشارد كورتمبارت. جغرافي فرنسي عاش ما بين عامي 1836 و1884 وكان عضواً مسؤولاً في الجمعية الفرنسية للجغرافيين.

من مؤلفاته:

- أخلاق وطبائع الشعوب.
- أمريكا والأعمال الأمريكية.
- شعوب ورحالة معاصرون.
- التاريخ الحديث للرحلات والاكتشافات الجغرافية الكبرى في كل العصور وكل البلدان.
- مأساة في عمق البحر (وقع تحويل قصته إلى فيلم)

كما كان يكتب في أهم المجلات الصادرة في زمانه مثل:

- مجلة العلم للجميع Science pour tous.
- مجلة رسوم Illustrations.
- مجلة الطبيعة Nature.

الطبعة الأولى 1432هـ 2011م
حقوق الطبع محفوظة

DC27.C5712 2011
.Cortambert، Richard، 1836-1884
[Impressions d›un japonais en France]
انطباعات رحالة ياباني عن فرنسا. وملحق عن انطباعات الفيتاميين عن أوروبا / ريتشارد كورتمبارت ؛ ترجمة الطيب الوراري ؛ مراجعة ماهر تريمش.-ط. 1.- أبوظبي : هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2011.
204 ص. ؛ 14×21سم.
تدمك: 978-9948-01-590-1
ترجمة كتاب: Impressions d›un japonais en France ; suivies des Impressions des annamites en Europ.
1. فرنسا -- وصف ورحلات -- القرن التاسع عشر. 2. الفيتاميون في أوروبا.
أ. وراري، الطيب. ب. تريمش، ماهر. ج.العنوان.
يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي:
Richard Cortambert
Impressions d'un japonais en France Suivies des Impressions des annamites en Europe



www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ فاكس: 462 6314 2 971+



www.adach.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 059 6336 2 971+

المحتويات

انطباعات ياباني عن فرنسا

اليابانيون في فرنسا.. الشرق في ضيافة الغرب، حيث تصافح حضارة آسيا الشرقية، حضارة أوروبا الغربية.. مايكو تحيّي باريس.. إنها فرصة للتعارف بين المغول والأوروبيين فيأخذ الرقي الإنساني مَسَارَهُ، وتُمحى الحدود ليبدأ تفاعل وتلاقح الأفكار.

لقد أصبح العالم كلّه موطناً لجميع الناس!

كانت تلك بعض الأفكار التي خامرتني في ذلك اليوم الذي صادف فتح سفارة لليابان في فرنسا.

كنت أمنّي النفس بأن أقضي بعضاً من الوقت مع مندوبي إمبراطورية «الشمس البازغة» مثلما فعلت مع سفراء فيتنام منذ بضعة أشهر، عندما وصلتني رسالة كأنها تعلمني بتحقيق رغبتي وهذا نص الرسالة:

زميلي العزيز:

إننا نعتبركم الصديق، والمدافع عن الشعب الياباني، لذلك فإنه لمن حسن حظي أن يكون في ضيافتي هذا المساء شخص ياباني، وسيتولى الخادم تحضير طبقٍ فخمٍ من الأرز على شرفه، وأقترح عليك أن تقاسمنا العشاء في صحبة الضيف الياباني.

نحن في الانتظار ودمتم

مارسيل كمبآس

بعد وصول هذه الرسالة بساعة، كنت قد وصلت إلى منزل مارسيال.

كان كل شيء مهيأً لاستقبال الضيف، الأجنبي بلياقة. فالوسائد المطرزة بالذهب والتي حلّت محل الكراسي، تم ترتيبها في القاعة بتناسق طريف، وعلى الرفوف والأثاث كانت هناك مراوح مزخرفة، وقلال، وقطع من أطقم صينية اقتنيت بأثمانٍ باهظة، كما أن المصابيح متعددة الألوان علقت بالسقف فبدت وكأنها تترصد القامات الطويلة، وحتى تكون عملية تقريب أجواء الشرق ناجحة، وضعت مجمّرات تبعث بروائح عطرة تنتشي بها الأنفاس. وعوضاً عن البساط الذي يفرش عادة على الأرضية وضعت قطعة من قش الأرز الخشن كان منظرها جذّاباً. أما المائدة الرئيسية فقد كانت عليها مجموعة من خرائط الصين ومملكة «الشمس البازغة» والتي كان من الواضح أنها جلبت حديثاً من كانتن وناجازاكي.

كان صديقي بصدد إطلاعي على نفائسه الشرقية، عندما قال لي برضا يشوبه الغموض: إن هناك المزيد من المفاجآت التي لم أرها بعد مقترحاً عليّ أن أنتظر حتى النهاية.

كان يقول إنه امتلك الأشياء النادرة والمأكولات، وإنه معجب بمكتسباته تلك إلا أنه يعاني الآن صداعاً في الرأس وإرهاقاً بدنياً كبيراً.

وما أن بدأنا مزاحنا حتى فتح علينا الخادم الغرفة ليعلمنا بقدوم

الضيف الياباني.. هل هي إشاعة كبيرة؟

ينهض صديقي الذي كان مستلقياً من شدة التعب على أريكة من دون أن يعرف إلى أين يتجه ليهيئ نفسه لاستقبال الضيف، غير أنه توقف مستدركاً أنه لا يريد مخالفة قواعد الذوق، فعاد إلى الوراء لينتظر الضيف في وقار.

وما هي إلاّ لحظات قليلة حتى انفتح الباب عن الضيف، الذي كان يتبعه رجل طويل القامة، دخل القاعة بلطفٍ وحيّانا بتلقائية، في حين كان صديقي– الذي انتظر حركات التبجيل اليابانية الثلاث التي اطّلع عليها في الكتب– قد بدأ ينحني حتى صار كأنه قوس على أهبة القصف، إلاّ أنه ما لبث أن استعاد توازنه واستوى قائماً.

لقد نسي مارسيل أن يستعدّ لاستقبال ضيفه على الطريقة الأمريكية، ودائماً تحت تأثير الدرس الذي تعلمه جازف باستعمال عبارة استقبال متعارف عليها في اليابان.

ذكّرت الياباني بوطنه فضحك وردّ بكلام لم يفهم مارسيل منه ولو كلمة واحدة. لقد كان صديقي في أقصى حالات الارتباك. ومن حسن الطالع أن الرجل «المتجهّم» وهو المترجم هبّ لمساعدته قائلاً له برباطة جأش كبيرة: إن الدكتور الشهير «كوان فو» سعيد بأن يقضي ليلة في صحبة شخص يفهم اللغة اليابانية، ويتقن عباراتها. آنذاك ازدادت حيرة مارسيل ولا داعي للقول: إنه ما إن شعّ النور في القاعة حتى استذكر صديقي أنه كان من الأجدى، عملاً بالحكمة

الفرنسية، لو حافظ على صيغة التحية على الطريقة اليابانية.

كانت الوسائد الموضوعة تغري بالجلوس. جلس الضيف ورفيقه بتأنٍّ ويسرٍ بينما كنت ومارسيل نتصرف بنوعٍ من الارتباك.

وفيما كان صديقي يطرح على «كوان فو» بوساطة المترجم، أسئلة حول الشرق الأقصى، انشغلت أنا بتفحّص سيماء الزائرين، مركزاً قبل أي شيء آخر على الدكتور الياباني.

كان الرجل الذي قد بدا وكأنه ناهز الخمسين من عمره، متوسط القامة وغير بدين، كما كانت عيناه السوداوان ترمشان بنعومة، زامّاً شفتيه بطريقة توحي بنوع من السخرية. ناهيك عن أن سحنة وجهه كساها اصفرار شاحب على أنف أفطس، كما كان جبينه المكتنز بعمق يرسل نوعاً من الوقار الذي يكشف للوهلة الأولى عن ذكاء.

أمّا شعره نصف المحلوق فقد كان منسجماً بطريقة فريدة مع باقي قسمات وجهه التي كاد يفقدها لو طال شعره الكثيف صدغيه.

«يقال إن المجهود الفكري يلتهم شعر الإنسان، ولعل اليابانيين يحلقون رؤوسهم حتى يبدوا واسعي التفكير».

أما المترجم ذو الأصول الهندية فقد كان طويل القامة، وذا رأس نحيف وبارز العظام، كما تفرع تحت أنفه الرهيف شاربان ملكيان مستقيمان كانا يلامسان عينيه السوداوين الحادتين، اللتين تتحركان داخل قعر أصغر بين جفنين داكني السواد.

أعلن الخادم في وقار أن المائدة جاهزة لاستقبال المدعوين، فبادر

مارسيل بحركة رشيقة قائلاً: أن الأرز والشاي «سيرتبكان» أمام ضيف مبجّل ومميّز.

عندها حنى «كوان فو» ظهره، معلقاً بأن الفرنسيين لا يعوزهم حسن التنظيم أو حسن الإفادة!

تمّ إدخال تغيير على قاعة الطعام، فلا وجود للمائدة بل طرحت على الأرضية حصيرة دائرية الشكل ألصقت بها أربع وسائد من الحرير الأصفر الرائع.

وفي وسط البيت كانت ورود الكاميليا والأرطنسية تشع على المنضدة من مزهرية يابانية، وبجانب أطباق صغيرة من الخزف الصيني كانت مرتبة، وضعت أعواد الأكل التي تم صنعها من دون شكّ في أحسن مصانع إمبراطورية المتوسط.

وعلى مقربة من ذلك، كانت هناك أكواب مزيّنة بمشاهد صينية مبهرة. ولإتمام تحضير الطقم، نصبت على شكلٍ هرمي ستّ قطع من الحلوى المثلجة، وأنواع من الخضر والغلال، جلّها تمّ إعداده بالخلّ أو السكّر.

لقد اطلع مارسيل على أكثر من كتاب اختصاص حتى ينجز هذا القدر العالي من الذوق الياباني. كان الإفطار فاخراً، وقد تناولنا لحم الفأر المعطّر بزيت الخروع والسمك الطازج وزعنفة القرش المعطرة بالزنجبيل. أمّا الأرز فقد تمّ تحضيره بطرق مختلفة، جمعت بين الطعم الحلو والمالح. وتتويجاً للوليمة جاء دور الشاي التقليدي الذي أعدّ

من دون حليب أو سكر أو ملح.

كان الحديث يدور حول العالم من دون أن نركز على مكانٍ بعينه.. إن سيماء الإنسان مهما كانت غريبة فإنها من الممكن أن تشدّ الأنظار لربع ساعة، بعدها يحين الوقت الذي يلحّ فيه العقل على معرفة المزيد. كان مظهر «كوان فو» مألوفاً لديّ ولكنني أردت معرفة أخلاقة وطبائعه، فهو على درجة عالية من الذكاء.

كانت ردوده سريعة ومختصرة وتدل في الوقت نفسه على عقلٍ نيّر، ورشيد. بالتأكيد إن «كوان فو» لم يكن رجلاً عادياً فقد كان يعرف الكثير من الأشياء، ولكنه لا يبوح إلاّ بالقليل.

أسئلة عديدة كانت تراودني: كيف ينظر هذا الرجل إلى فرنسا؟ ما فكرته عن شعب الفن والآداب، الذي تحول إلى شعب للصناعة والتجارة وأعمال البنوك والمال، تحت تأثير السعي الملحّ إلى الربح؟ كيف يحكم على هذه الأمّة، التي كانت في يوم ما كريمة ثمّ أخذت تسعى سعياً محموماً إلى التدثّر برداء الأنانية وإعلاء شأن الأنانيين؟ كيف ينظر إلى هذا العجز البشري المتدثّر في ثوب من حرير وإلى هذا الخداع المكسو بالسواد وإلى هذا العار المفضوح على عربات النصر؟

وكيف يحكم على هذه الدول الأوروبية القوية، التي يبدي بعضها صداقة صلبة ثم لا تلبث أن تتنازع ويمزق بعضها بعضاً؟

كانت أسئلة ملحة، وعلى الرغم من رغبتي في طرحها فإن تحفظاً

بديهياً منعني من جسّ نبض هذا الموظف ذي العين الثاقبة، والابتسامة التي توحي بالخبث، واللهجة التي تستسيغ المراوغة.

ولكنّني صمّمت على سبر أغواره عن طريق الترجمان، الذي احتل مكاناً ثانوياً بيننا طيلة وقت الفطور. يبدو أنه وُهب لساناً قادراً على تحويل الياباني إلى فرنسي والعكس بالعكس. أما عقله فقد حكمنا عليه عن خطأ أو صواب بالعجز التام، فالمترجمون بؤساء، إذ إنهم في أي مكان عبارة عن آلات محكوم عليها بالخرس حتى لا يتزعزع حسابهم. وبطبيعة الحال، كان كل اهتمامنا منصباً على «كوان فو» وكان بالإمكان أن يبقى الترجمان في الظل إلى النهاية، لو لم يخطر ببالي من دون سابق إعداد أن أشركه في مشروعاتي.

«خمّنت أن تكون لهذا الرجل المترجم، جرعة ما من الغرور.

ولا بدّ من العزف على هذا الوتر الحساس، فعلاقته الطويلة مع «كوان فو» مكّنته من الاطلاع على كثير من الأسرار التي ما كان لنا أبداً أن نعرفها مباشرة من «كوان فو»، لأن من المؤكد أن المجتمع لا يشركه في الحديث إلا نادراً!

ولذلك فإن مسعاي الجدّي بهره، وقاده مُنحني الرأس إلى الوقوع في الشراك. وبعد أن خامرتني هذه الأفكار التفتّ نحو المترجم لآخذه جانباً وأفاتحه بهذا الأمر.

قلت له: في الحقيقة سيّدي لقد أثرت فينا الغيرة، فمعرفتك الجيّدة للغتين متباعدتين تباعداً كلّياً، تجعلنا نشعر بالخجل من جهلنا!

لقد قال شارك كوبنت: «بقدر ما نعرف من اللغات المختلفة، بقدر ما نكون أكثر إنسانية.. أحيّي فيك سيّدي المواطن العالمي، تميّزك عنّا!»

وعلى افتتاح هذا الحديث ردّ المترجم بعبارات معروفة من الشكر، والتواضع، مثمنا نظرتي الطيبة تجاهه، ومبتسما ابتسامة فيها إشارات الرضا.

ورغم أن العقول المتفوّقة لا تكترث كثيراً بالثناء، فإن المترجم سُحر بمديحي له وأصبح أكثر تواصلاً في الحديث. وبذلك فقد استدرجته إلى أجواء الصين واليابان وسألته عن بداية علاقته بـ«كوان فو»...

تعمّدت إذاً أن أخدش عزة نفسي، فجعلت منه حكماً، وسألته عن المكانة الحقيقية حسب رأيه للنبيل الياباني، فأجابني إن «كوان فو» مثقف متميّز، يسافر إلى أوروبا لدراسة عاداتها، ويكتب تقارير تصف وصفاً دقيقاً، وكاملاً ما سجلته ذاكرته. وسيكون لمذكراته شأن كبير، عندما تنشر في مجلة «ماياكو».

ولدى سماعي هذا الكلام سارعت إلى سؤاله: وأغلب الظن أنك قد اطّلعت على المخطوط الذي يحوي هذه المذكرات؟

– إطلاقاً، فقد كان «كوان فو» منتبهاً لمخطوطه طوال الوقت، وأبدى حرصاً كبيراً على أن يجعله بعيداً عن الأنظار.

– آهٍ! كنت أعتقد أن متانة العلاقة بينك وبين «كوان فو»، تلغي فرضية منعك من الاطلاع على مذكراته لو

أبديت أدنى رغبة في ذلك!

- «كنت أجهل ذلك».. قالها المترجم بتلعثم منْ دُون إبداء أية رغبة في مزيد من التواصل معي. وحرصاً على ألاّ يفقد مكانته لديّ، عدت للحديث:

هيّا بنا، بشرف أوروبا وأنت أجدر ممثليها لا أظن أن مهارتك تتعطل أمام وسوسة رجل ياباني. كيف يمكن لمذكرات تحتوي معلومات عن مواطنينا، وربما كتبت في بلدنا أن يتم تسريبها خلسة عبر الحدود من دون أن نعرف شيئاً عمّا كُتب فيها؟ لن تسير الأمور هكذا.. ألا تريد أن تعرف سيدي ما قوبلت به وفادتنا الودودة لكما؟ وهل هذا الفيلسوف صاحب الابتسامة الماكرة واحد من المتخلفين المحتقرين الذين حكموا على حضارتنا الجميلة بالشذوذ، والذين يسخرون من كل شيء لا يقدرون قيمته؟ وفي نهاية التحليل، هل تحب أن تحكم بعقلك المستنير على مواهب «كوان فو» الأدبية، وعلى تعمّقه في الفلسفة؟

- أعدك سيّدي، إذا سنحت لي الفرصة.

- الفرص يا سيّدي تُصنع، ورجل مثلك بإمكانه أن يوفر ما يشاء من الفرص. بعد قليل تعرض علينا المذكرات، وليتك بصفتك صديقاً لنا تمكننا من قراءتها ضمن لجنة مضيّقة، ثمّ بعد ذلك يعود كلّ شيء إلى نصابه ولن يتفطّن «كوان فو» إلى سرقتنا الأدبية البريئة لمخطوطه. تذكّر هذه الحقيقة، التي خص بها شكسبير بنوعٍ من الخبث الأزواج:

«لم يخسر البتة من أُخِذ منه شيء لا يحتاجه مادام يجهل الأمر».

– أقسم لك أنّني سأبذل كامل طاقتي.. قالها المترجم وهو يشدّ برصانة على يدي.

– أعتبر أن وعدك هذا لي يساوي تحقيق جميع أمنياتي. والآن لم يبق لي إلا رجاء واحد: هل بإمكاني أن أتحقق من حضورك حفل الاستقبال الذي أعتزم إقامته لضيوف صديقي مارسيل في غضون ثلاثة أيام؟ وسنعوّض لحم القرش مع الزنجبيل بالشامبانيا والجواهانيسبرغ. هل تحبّ الشامبانيا؟

– من دون أدنى شك، إنه الشراب الوحيد الذي يعرّف ببهجة الفرنسيين خارج فرنسا، فالشامبانيا هي إلى حدّ ما رمز لطبائع مواطنيكم.

قبل المترجم دعوتي، ومن الغد أسرعت إلى تاجر الكسول (والكسول هو حيوان يعيش على الأشجار في أمريكا الجنوبية) وطلبت للمترجم ثلاث سلال من أجود أنواع الشامبانيا البلدي. وحتى أخفي تسرّعي الذي كان بحقّ يثير الشبهة، اختلقت سبباً واهياً لحسن الحظ، وُجد من يصدّقه، تصديقاً لمقولة: «لا يوجد مكان يُحجب عنا عندما نحسن إلقاء قطع من الذهب فيه».

بعد ثلاثة أيام، قمت بدوري بإجراء الإعدادات الخاصة بحفل الاستقبال. ففي ركنٍ من قاعة الاستقبال، أقمت ستاراً عالياً كان متناسقاً مع السقف والجدران بشكل يكاد يكون طبيعياً وكأنه بناء فاصل.

وخلف هذا الجدار الفاصل، الذي أقيم من دون سابق إعداد، وضعت طاولة كان عليها ورق وحبر، بينما استعد كاتب يتقن الاختزال للجلوس عليها.

وفي الساعة المتواعد عليها، دخل بيتي «كوان فو» والمترجم.. لقد نجحت خطّتي. ولما كان مخطوط المذكّرات مخفياً في جيب المترجم الوفيّ، لم يكن الأمر يستدعي سوى إزاحة الياباني النبيل، وإبعاده عن الشخص الذي يعتبره لسانه الفرنسي.

في تلك اللحظة كان يتنازعني أمران: فمن ناحية لم أكن لأخاطر بجعل الرجل الياباني يعود وحده إلى بيته فقد يقع تحت تأثير نزوة ويسجّل انطباعاته عن هذا اليوم في مذكراته. ومن ناحية أخرى كنت أشعر بالحيرة أمام المشهد شبه المأساوي الناجم عن اضطراب ذكاء الموظف المتميز الذي استدرج للإفراط في شرب الخمر.

وفجأة، كأنما مفعول نور قذف في عقل مارسيل، فقد تقرّر أن يلهي أحدنا «كوان فو» فيما يشرع الآخر في الاستماع إلى قراءة المذكرات من طرف الترجمان.

هكذا رتبت العملية إذاً! ومصادفة كان صديقي هو الذي رافق «كوان فو» بعد أن تظاهر الترجمان بوجع ألّم به في الرأس، ما استدعى وبإلحاح خلوده إلى الراحة، أمّا أنا فقد استنبطت بدوري سبباً أقل مصداقية وسار كل شيء حسب رغبتنا.

وما أن توارت السيارة التي تحمل صديقينا حتى رجوت المترجم

أن يخرج مخطوط المذكرات فاستجاب لي من دون أي تردّد.

بدأ القراءة بصوتٍ خافتٍ ورصينٍ.. أرخيت السمع، وكنت أنتبه إلى اللمس الخفيف للورق، ومن حين لآخر إلى نوع من الهمس يحدثه صرير القلم.

- حسناً، لقد بدأ الرجل مهمّته على أحسن ما يرام.. هكذا خمنت في نفسي. قلت للمترجم: إنني لا أستطيع سماع الكلام إلا إذا كان الصوت عالياً بما فيه الكفاية.. هل بالإمكان أن ترفع صوتك قليلاً؟

استجاب المترجم لرجائي، بينما كان الكاتب حريصاً على ألاّ تضيع منه ولو كلمة واحدة. ومن الغد كانت بين يديّ نسخة من مخطوط الياباني طالها بعض التقطيع في أكثر من موضع.

كان أمراً لا بدّ منه، لأن «كوان فو» فيلسوف جسور جدّاً.

I - ذكـرى الـشبــاب

إذا كان الوطن – مثلما يُظنّ – هو المكان الذي يولد فيه الإنسان فأنا إذاً صيني، لأن أمي وضعتني في باخرة كانت راسية على ضفة شنغهاي. ولكن إذا كان الوطن هو المكان الذي نعرف فيه أول حب في حياتنا فأنا ياباني.

في كلمتين مختصرتين، هذا تاريخ شبابي: ولدت مشوّه الخَلق، إذ كانت ساقاي تعمدان إلى التشابك عند الركبة، ما دفع والدي وباعتباره مواطناً منضبطاً إلى التخلّص منّي.

كان يقول لأمي، وهو يحملني فوق الموج: لنا خمسة أبناء لا نعرف ما سنفعله بهم. وأشهد الله أنني لم أكن أرغب في مجيء هذا الطفل، ولكن لننس هذا الموضوع من أصله.

كان يهمّ بإلقائي في الماء، عندما سارعت أمّي لانتزاعي من بين يديه ولتهرب بي ولكي تتركني بعيداً عن الأنظار في سفينة صغيرة كانت راسية بجوارنا، وكانت مسرحاً لبداية حياتي.

وبفضل شريط مشدود بصلابة، تمكّنت من تقويم ركبتيّ، فأنا وعلى الرغم من حالتي الميئوس منها استطعت أن أكبر، إذ لم يكن طموحي سوى أن أعيش.

حدّثتني بهذا الأمر كلّه امرأة عجوز، عندما كانت سنّي بين الخامسة والسادسة. لقد نشأت في قاع حوض حتى سن الثالثة،

متّخذاً من قردٍ كبير أخاً لي، وكان مصدر فرحي وحزني الأوّلين.

ولمّا بيع القرد ضاعت مني البهجة، وعدت إلى حالة القلق، إذ إنني وبذكائي المتواضع أدركت أنهم ما داموا قادرين على حرماني من أعزّ صديق لي فإن العالم لا يمكن اختزاله في بيت من الخشب العائم.

ومنذ ذلك الوقت أصبحت مدمناً على حبّ المعرفة!

انتهزت فرصة غياب أمّي، وانخرطت بشجاعة في صنع نوع من «الصقالة» بالسلال والبراميل، ما مكنني من الوصول إلى جسر القوارب. وقد مثّل ذلك اليوم بالنسبة لي بداية اكتشاف العالم: البواخر العديدة، البيوت التي تظهر وسط باقات من الشجر، والأرياف التي تستعرض فضاءاتها اللامتناهية، كانت كلها تمر أمام ناظريّ، مخلّفة أعمق الانطباعات. السماء التي لمحت للمرة الأولى قبتها الزرقاء اللامتناهية، كانت تدخل على قلبي البهجة بإشراقها المتلألئ. وهكذا انكشف لي فجأة أن في أعماقي شعوراً بأنني كائن سيّد.

كنت أعتقد دوماً أن السجون أو ما شابهها من خلفيات الدكاكين والفضاءات المشينة تقود حتماً إلى الإلحاد، بينما يبعث منظر الحقول الإيمان في النفس.

مرّت بعد ذلك سنتان من الشقاء من دون أن أتمكّن من تذكّر الأحداث التي طبعت حياتي.

وفي أحد الأيام، وعوضاً عن أمّي، ظهرت لي امرأة كبيرة أخافتني رؤيتها، قالت لي وهي تجتهد لتهدئتي: كن هادئاً فأمك تراك من دون

انقطاع من علياء السماء ...

فأجبت من دون أن أعرف في أي عالم أنا موجود: حسناً سأنظر إليها أنا أيضاً...

ورغم أنني لم أتجاوز الثامنة من عمري، فقد عقدت العزم وشرعت في الإعداد للهروب. لم أكن أخاف المرأة العجوز التي لا تأتيني بالطعام إلا نادراً. إلاّ أن ما كان يرعبني هو مجرد التفكير في أن أجد نفسي وجهاً لوجه مع الناس الذين تعوّدت منذ نعومة أظفاري على أن أنظر إليهم باعتبارهم أخطر المخلوقات.

واعتماداً على طريقة الملاحين الذين يحرّكون فليكاتهم بمجاديف، ألقيت في الوادي برميلاً فارغاً مثقوباً في مستوى النصف، ورميت بنفسي، إذ كان التعبير عن فرحتي بحسن أدائي في التقدم في الماء أول حركة أقوم بها، وبينما كنت أحرك عصاتي الطويلة فوق الماء، أدركت أن قاربي الذي صنع على عجلٍ، يتجه نحو الغرق، ولكن الخطر المحدق بي صدمني باكراً. ويبدو أنني كنت مستشعراً الأمر إلى حدّ أنني تكورت داخل البرميل وأغمضت عينيّ.

وفجأة حدثت فرقعة مرعبة حولي. فقد اجتاح الماء بقوة ومن كل جانب زورقي الصغير. ولما تجاوزت حالة الحذر التي أدخلني فيها غطسي المفاجئ في الماء، وجدت نفسي محاطاً بمجموعة من الرجال قابلوا نظرتي الأولى لهم بأصوات تعبر عن الفرح، ما أصابني بحالة من الخوف الرهيب، ثمّ تمّت تهدئتي فاستويت قائماً بسرعة.

وجدت نفسي داخل باخرة بسطت أشرعتها العريضة في الهواء، وكانت مندفعة فوق كتلة من الماء تشبه بأعجوبة زرقة السماء.

عرفت بعد ذلك أنه تم إنقاذي عن طريق سفينة هولندية كبيرة، كانت قد أقلعت نحو اليابان وأنني مدين بحياتي بعد الله لملاّحين أوروبيين.

في البداية، عاملني أصحاب السفينة بشفقة على أنه وكما هو متعارف عليه لدى الجميع أن لكل خدمة مقابلاً، لذلك فقد فرضوا عليّ القيام بأعمال جدّ شاقّة. وكأنهم بعد أن أنقذوني من الغرق، أرادوا أن أموت تحت ضرباتهم، لولا أن القدر لم يسمح لمركبنا بأن يرسو في شرم ناجازاكي قرابة ديسيما.

وكما هو معلوم لدى الجميع، فإن ناجازاكي مدينة يابانية كبيرة، فتحت منذ زمنٍ مرفأها للصينيين والهولنديين.

كان الصينيون يُحتقرون فيها، ولكنهم كانوا يتمتعون بنوع من الحرية، بينما كان الهولنديون مبجلين ولكن تحت أعين الرقابة. فنحن نتعامل مع اليابانيين تجارياً، تبعاً للأعراف والمعاهدات. فاليابانيون يتصرفون بحذر شديد مع الأجانب، بما يشبه ذلك الرجل النزيه الذي يجد نفسه مجبراً على المتاجرة مع أناس مشكوك في استقامتهم. تبدو إمبراطوريتنا اليوم، مقبلة على حالة من الانحلال المحدق. فقد مثّل انعزالها نقطة قوّة لها ولكن إذا لامست أقدام الأوروبيين المقرّحة أرضها العذراء، فسيصاب البلد الفقير بالفساد على غرار باقي البلاد

المتحضرة. لو كنت ملكاً لاعترضت بقوة على تواصل رعايانا مع أناس أصابهم الطاعون، واتخذوا من العيب واليمين الغموس وسيلة للترقّي.

فديسيما أينما حطّ الهولنديون رحالهم، ما هي إلاّ سجن محجوب، إلاّ أن سكّانها يجدون المواساة في الملايين التي يكدسونها، بينما أجد نفسي أنا الطفل الفقير في خدمة ثلاثين من المضحكين السيئين، وأمشي قُدماً نحو النكبة.

وبفضل الحَول البادي في عينيّ، وسحنتي الصفراء، تمكّنت من مراوغة انتباه العسس لأجد نفسي وسط الحشود من الناس في شوارع نجازاكي...

هكذا بدأت مرحلة تعلمي.. انتدبني تاجر يبيع البرنيق، للعمل في دكانه. وقد تعلمت من مشغّلي الأول الذي كان رجلاً غاية في النزاهة أن التاجر الذي يسعى إلى الغنى عليه أن يعوّل على فجاجة المشترين، أكثر من تعويله على تفوق منتوجاته المعروضة للبيع.

ومن دكان تاجر البرنيق، انتقلت للعمل لدى «أوتانا».. أي ما يشبه ضابط الشرطة. وقد استفدت منه سريعاً أن سادة العدالة يسمحون لأنفسهم ببعض السرقات الصغيرة، التي يردعون غيرهم عن القيام بها. وأخيراً، عرفت أثناء قيامي بمهمة كاتب لدى كاهن بوذي أن هياكل العبادة هي بالنسبة للرهبان البوذيين ركن مسرحي يحرصون على أداء دورهم فيه إذا لم يجدوا طريقاً آخر لاستغلال الناس.

باختصار، بعد أن كنت خادماً، ثم مؤتمناً ثم كاتباً لحبر، اشتغلت مساعداً لمثقف يعرف بصورة تثير الإعجاب، اللغات الأوروبية، والنظم السياسية لكل العالم، إلاّ أنه لم يجد الوقت الكافي لدراسة بلده وطبائع مواطنيه. فقد أفادتني مكتبته كثيراً وفتحت لي آفاقاً رحبة. وللأسف الشديد، كانت لسيدي ابنة لا يعتني بها بما يكفي فعوضته في هذه المهمة ولكن بشيء من المبالغة. لقد اعتقدت أن الحب يستحق دراسة معمقة، فانغمست بكل قوّة في هذا الميدان، الأمر الذي أدى إلى طردي وبطريقة مهينة.

وأنا أرزح تحت أقسى أنواع الألم، كنت أذهب لكي أتأمل الماء على ضفاف الساحل سائلاً نفسي: أليس من الحكمة أن يبحث المرء عن الراحة الأبدية في قاع هذا النهر؟ وفي لحظة اليأس هذه ربّت على كتفي شخص غريب، فهم من دون شك ما كانت توسوس به نفسي وقال لي:

أتحب أن تموت؟ لا تقلق نفسك كثيراً بهذا الموضوع، الذي أعطانا وسائل يمكن أن تفنينا، ولكن الواجب يفرض علينا ألا نزعج غيرنا. فبدنك عندما يصبح جثة هامدة على هذا الشاطئ، سوف يؤذي إخوانك، وقد يتسبب في هلاكهم. ثمّ واصل: إذا لم يكن لك سيف فهذا السيف لك، ولكن رتّب أمورك على ألا تجبر الآخرين عند موتك على رفع جثّتك ودفنها، لأنه قد يكون من الظلم والأنانية أن تقلقهم بسبب الاعتناء بجثّتك.. تصرّف كما تشاء، ولكن تأكّد أن

من الذنوب أن تكدّر راحة الآخرين بأي شكل كان.

وقد بدا لي هذا التحليل أقرب إلى المنطق منه إلى العبث، فصمّمت على أن أحيا!

وبعد هذه الحادثة بثلاثة أشهر، نزلت بيائدو وأخذت مكاناً لي على الرصيف منادياً المارة بأعلى صوتي، وأقوى عزيمتي، لأعلن أن البطيخ الذي أبيعه يتفوق مذاقاً على بضاعة زملائي الباعة. لقد أخرجتني تجارتي الصغرى هذه من حالة الشقاء القصوى التي كنت أعانيها، لكنني ولما كنت لا أرغب في كسب المزيد من المال على حساب تنمية ذكائي، فقد حاولت السير في طريق يتناسب كلياً مع جميع تطلعاتي.

لقد كان العلم يستهويني، لذلك قصدت أحد كبار الدكاترة، والذي علمت أنه كان بصدد البحث عن كاتب فقدمت له طلبي الذي لم يغفل ذكر كل ما يمكن أن يطلعه على تفاصيل حياتي، كاشفاً له عن حالة الحيرة التي أصبحت عليها، وموعزاً إليه بأن لي من القدرات المهنية ما يفوق ما تتطلبه مهنة متواضعة لكاتب. وقد كنت متيقّناً بأن طلبي سيحظى بالموافقة، إلاّ أن الدكتور سرعان ما أجابني بأن مهنة كاتب لا تليق بقدراتي العلمية، واقترح عليّ أن أعمل لحسابي الخاص قائلاً لي:

لن يكون ضميري مرتاحاً لو صرفتك عن الآداب التي يمكن أن تبرز فيها كطالبٍ متحمّس.

فقلت في نفسي: ربما يفضّل هؤلاء الدكاترة مساعد كاتب على أنصاف المثقفين، حيث إن للمتعلمين مزاجاً حساساً ومن المعروف أن الضوء يؤذي العين أكثر مما تؤذيها الظلمة. وفي محاولاتي القادمة للحصول على عمل، سأعمل على أن أكون صريحاً حول سيرتي الماضية، ولكن مع الاكتفاء بإعطاء معلومات بسيطة.

التزمت بما استقر عليه رأيي، وعندما حانت الفرصة، قدّمت عرضاً مفصّلاً عن سيرة شبابي ملمّحاً إلى تواضع زادي المعرفي.

أجابني ممتحني: حديثك عجيب يا صاحبي، وقصّتك تؤثر في القلوب. فأنت من القلائل الذين يعرفون كيف يسحرون العقول والقلوب.. أنت مبتغاي، لأنك على قدرٍ كبيرٍ من الذكاء، ولكن لماذا لا تسعى إلى أن تكون على درجة أعلى من التعلم، حتى تتمكن من أن تكون كاتباً ناجحاً والشخص الذي يفيدني أكثر؟

قلت في نفسي: حسناً، لنغيّر الخطط، فالحقيقة مثل الشمس إنّها تبهر.

اتّجهت إلى بائع أثاثٍ قديم، كساني من رأسي حتى أخمص قدميّ، ثمّ أمضيت نحو ساعتين عند حلاقٍ حكّ رأسي ثم رشّه وزيّنه بمهارة إلى درجة لم أتعقّل معها نفسي عندما نظرت في المرآة! ثمّ إنني اشتريت نظارتين خضراوين جميلتين زادتا هيأتي وقاراً وبهاء.

ومن دون إضاعة أي وقتٍ، توجهت إلى أحد المثقفين، والذي صرفني من قبل بلباقة، وقلت له بلهجة الواثق بنفسه: لقد قصدتك

لأنك أكبر عالم في هذه الربوع. فأنت تحتاج إلى خدمة كاتب، وأنا أرغب في أخذ نصيب من الدفء الصادر عن عقلك المشع، ثم واصلت: أنا ابن دكتور كان لأجداده صيت ذائع في مجال الآداب. أستطيع أن أرتجل الحديث بلغة التبيتان، كما أن لغة الأينو في متناولي، ومع ذلك فإن كل هذا لا يساوي شيئاً أمام علم مثقفنا الوافر والعجيب.

وبعد ذلك بثلاث دقائق، تمّ قبولي للعمل كاتباً للدكتور المثقف، وكانت خلاصة ما توصلت إليه أن النجاح هو أن تمدح الآخر!

ومن موقع المأمور المنفذ، تدرجت عن طريق المناظرات المتتالية، التي كنت أنجح فيها باستمرار حتى وصلت إلى منصب دكتور فحلّقت رأسي وأصبح لي منذ ذلك الوقت حق التصدر في الجمعيات.

أحب بلادي ومواطني، وأفعل الخير بدافع تلقائي لا لغايات سياسية. وخلاصة القول: أكون سعيداً لو أن قوة عليا بذرت في روحي حباً لا يرتوي، وشغفاً مضنياً بالسفر والرحلات، على الرغم من أنه يقال: من مبادئ الحكمة أن يعمل المرء على إخماد نار الرغبات.

الرحالة يشبه المحارب، أو مدمن المخدرات. فلا شيء يمكنه أن يطفئ ظمأه، وهو كلّما ازدادت مشاهداته، ازدادت رغباته. الطاغية المحارب إذا حاز اليوم إقليماً فإنه سيسعى من الغد إلى طلب إقليم ثان، ومدمن المخدرات ما إن يأخذ الجرعة الأولى من المخدر حتى

يكون قد حكم على نفسه بالشقاء... كذلك الرحالة الذي يطلب راضياً الشقاء لنفسه...

الخالق سيّد الخير، لم يخترع بالتأكيد البواخر. أعتقد أن ذلك كان من صنع شرّير. للرحالة حياة غير عادية، فالإنسان لم يخلق ليحيا من دون بيت يؤويه، يسعى تائهاً عبر العالم، حيث لا عائلة ولا صداقات. والحياة لا ينبغي أن تكون سباقاً عبر الجبال ولكن رحلة في سهل صغير ومستوٍ. من الجنون أن نبحث عن السعادة في الحمّى، ولكن هذا ما يفعله الرحالة. السعادة الحقيقية تجدها حيث لا تظن وجودها وأنت كلك يقين. ويبدو لي أن من يحشر نفسه في الظلمة الكبرى، يشبه الشخص المتهور الذي يُضني نفسه، ويعذبها معتقداً أنه يعمل على السموّ بروحه. فعملية التفكير ما هي إلا شفرة من حديد إن تصلح العقل فإنها تُدميه. ترى على جبين أصحاب الفكر العميق وفي أعينهم، الأثر الكبير لأنواع مألوفة من العذاب الذي يهيج داخل أدمغتهم المضطربة. كل مفكّر يدرك نوعاً من النشوة والطمأنينة، أقرب إلى البلاهة والنزعات الهجائية والشيطانية. فلا وجود لحالة وسط: إما أن يكون الإنسان في هذه الحياة قديساً فشهيداً، أو شيطاناً فسيّداً.

عندما أُعلن ذلك على العالم للمرة الأولى، بدا في كل مكان وعلى أعلى القمم كيف أن الشر المصمم بمهارة يجهز على الفضيلة.

الحيلة هي ملكة هذه الأرض، والفكر الذي ينتجه العلم هو الشر والخير في الشر.

II – عبور ساترابيل

رتبت كامل شؤوني.. لم أترك ورائي زوجة يمكن أن تلوث شرفي، أو خادماً، أو وكيل أعمال يبدّد ثروتي، أو مديناً يفرح لمغادرتي ويرتاح من إلحاحي أو حتى وريثاً يدعو الأقدار أن تعجّل بنهايتي.. لست محسوباً إلا على نفسي، فأنا وحيد في هذا العالم، ولهذا السبب بالذات أنا حرّ بأن آتي أكبر الحماقات المخيفة.. سأسافر وأنا عازم على أن أدع القدر يحملني إلى آخر نقطة في العالم.

كانت أول فصل في رحلتي، مصارعة لإعصار مرعب دامت يومين. وقد بعث هذا الإعصار الإيمان والدين في قلوب الأوغاد داخل الباخرة. حصل من ذلك اعتقاد مفاده أولاً أن العقيدة تتركز لدى التعساء أكثر من السعداء، وثانياً أن الفقراء من عباد الله هم أكثر عدداً من الأغنياء، وثالثاً أن السيد لكي يكون محترماً يتوجّب عليه أن يكون قاسياً.

أثناء هذه العاصفة، كان هناك رجل واحد (ساترابيل) استطاع أن يحافظ على رباطة جأشه مبتسماً بجرأة أمام الأمواج المتصادمة حولنا كتصادم الجبال عند زلزال الأرض. كان في مؤخرة السفينة يمدّ يده اليمنى، مرتكزاً على حطام صاري السفينة.. ثابت القامة، متلألئ العينين، متأملاً من دون رعب المنظر المهيب للبحر الغاضب. وعندما تنهار الصفائح عليه يخيّل إلينا أن لا أثر للأمواج عنده أو أن الأمواج

تسكن عندما تلامسه.

كان هذا الكائن الغريب بمواقفه تلك، يبعث الطمأنينة في قلوب الأقوياء، والرعب في النفوس الفزعة، التي كانت ترى فيه المحرض السري على كل هذه العناصر. لقد كان بكلّ تأكيد، أغرب مخلوق خلقة وخلقاً يمكن أن أكون قد رأيته في حياتي.. كانت له قسمات شخص أوروبي، ولكن بشرته يكسوها اسمرار غامق حتى ليكاد يبدو للوهلة الأولى أنه طفل من أفريقيا. كما كانت له لحية خفيفة، بينما لفّ شعره الطويل، وجهاً يبعث على الفزع، وأبعد من أن يكون جذّاباً.. كانت ثيابه عبارة عن مزقات، ولكنه ارتداها بطريقة بالكاد تسمح بالتفطن لموردها.

كان هذا الشخص الغريب يتكلم بطلاقة كل اللغات، وكان مطّلعاً على تاريخ كلّ الشعوب.

بادرني بالقول: أتريد أن تطأ الأرض القديمة لأوروبا؟ كن حذراً، فهناك عدوى الطغيان والوثنية. أنا ولدت هناك، وبعد أن عرفت السعادة مدّة، وجدت نفسي شقياً إلى درجة أنني فضلت مغادرة البلاد. إنني أسعى لهداية الأنفس الكريمة إلى مبادئ التحرر، وكل الذين يتمنون السعادة لغيرهم يطلبونني.. لي روح طيبة، ولكنها متهيّجة، وإذا حدث أن أرقتُ دماً، فلن يكون ذلك إلا في سبيل الخير. وخلاصة القول: إن ذلك يكون لفائدة الإنسانية.. أنا كائن يبعث الرعب وقد أخفتك أليس كذلك؟

في حقيقة الأمر إن تضارب أقواله جعلني أعتبره مجنوناً، فلم أستطع التحكم في أي نوع من الشعور بالخوف.

– «أنا أخيفك، هكذا تابع هذا الرجل صاحب الأطوار الغريبة.. أنت على خطأ، لتطمئن نفسك، وأنا خير ممّا يُظنّ بي.. صراحتي تخيف، ولكن هناك الكثير من المنافقين.. هذا كل ما في الأمر. أهاجم في وضح النهار، بينما يمارس أعدائي عمليات الخنق في الظلمة.

– قلت له: من أين أتيت وإلى أين أنت ذاهب؟

– «أسافر من دون انقطاع.. أنا قادم من كل مكان، وذاهب إلى كلّ مكان»

– ومن أي شيء تعيش؟

– لست فقيراً، زد على ذلك أن لي أبناء مخلصين في أمريكا، وآخرين في أوروبا خدعوني.. لقد استغلوا اسمي رغم أنني أكنّ لهم كل الحب والحنان.. تحملت في سبيلهم كل شيء: المتاعب، القلق، السهر، الليالي الطويلة، والتعذيب.. لقد عانيت من كل شيء في سبيلهم، إلاّ أن نكرانهم كان غالباً جزائي. لقد تعوّدت على ذلك ولكنني أتساءل: ما الذي يجعل أبنائي الذين طالما أحببتهم يعذبونني؟ إنها الأقدار:

تُدلل الأبناء، حتى إذا كبروا، دفعوك ذات يوم خارج بيتك، فترحل محطم العقل، هامد الروح، ومقطب الجبين المتجعد.. نرحل، ولكن يكون آخر دعائنا لهم أيضاً، فقلوب الآباء، إما أن تكون عظيمة وإما

أن يسيطر عليها الجبن.

عند هذا الكلام، كان ذاك الرجل الغريب الذي كدت قبل دقيقتين أرتعش أمامه، يذرف الدموع بغزارة، ويرثي حاله قائلاً: «أبنائي الأعزاء، لا يمكن أن تتنكروا لمولدكم.. لقد أحببتموني وخدمتموني، عودوا إليّ فقد عفوت عنكم».

ساترابيل، هو واحد من هؤلاء الثرثارين، الذين يستدعون التفكير. وقد تعودت على حديثه المتّسم بالعنف والمجاز والشراسة في بعض الأحيان، وكذلك العمق في أحيان أخرى. وبطبيعة الحال إنه رجل نزيه، رغم أنه قد يفرط في التمعن في بعض الأمور. فهناك فرضية تقول: لا وجود لشيء مطلق في هذا العالم، ورغم سعي العقل للوصول إلى المطلق، فإن الوقائع تكذب ذلك. في كل الأمور هناك تزاوج وانصهار، ومزيج الأشياء المطلقة أسطورة. لساترابيل خيال يجنّح به بعيداً.. فهو في بداية المحادثة يكون تحت تأثير إحساس بالعظمة.. لا يعرف كيف يوفر طاقته التي يستنفدها بسرعة، ليجد نفسه في حالة من الوهن والانبطاح ومن هناك تبدأ شكواه ويبدأ بكاؤه.

لكن هذا لا يهم كثيراً، فالتجربة التي حازها عن معرفة طبائع الشعوب والأنظمة السياسية لأهم الحكومات الأوروبية، علمتني الكثير، وأنا أشعر بأسف شديد لقراره بمغادرتنا قبل وصولنا إلى فرنسا، إذ إننا عندما عبرنا مصر، وركبنا باخرة متجهة إلى الإسكندرية

أعلمني ساترابيل أنه سيتركنا حال وصولنا إلى اليونان، ليتوجه إلى شمال تركيا وقد التزم بوعده. فعندما حانت ساعة الفراق، وانبسطت سواحل اليونان في الأفق، ودّعنا ساترابيل واعداً بملاقاتنا في قابل الأيام، ومقسماً لي بأنه سيتصل بي خلال رحلاتي في أوروبا.

بعد أن صافحنا ساترابيل بأخوّة، انطلق عبر جسر من الزوارق إلى عرض البحر، وعندها أطلقنا زفرة هلع إلاّ أنه سارع إلى طمأنتنا مذكراً بأن شاعراً إنجليزياً متعلقاً بالحرية كان قد غامر بالقيام بأشياء من هذا القبيل، ثمّ حرك الماء بيديه وابتعد.

III – الوصول إلى مرسيليا

أنزلت باخرتنا، حمولتها الكاملة في مرسيليا. فهذه المدينة التي يقال إنها بنيت من طرف شعب قليل الحكمة، بدا لي أن موقعها قد اختير بذكاء، إذ إن منظرها يذكّر بذلك الشخص الذي يؤخذ رأيه بجدية ولكن ذكاءه للأسف عطّل سموّ روحه الكريمة.

نادراً ما رأيت عدداً كبيراً من التجار، ورجال الأعمال، وأصحاب البنوك، والوسطاء، والمهربين، والملاحين وهم محتكون ومنجذبون إلى نفس المكان، ناهيك عن النشالين والمجرمين مثلما رأيت هنا.

في بعض الحالات تخامرني فكرة السفر وحيداً، بلا رفاقٍ أو أدلاّء، إلاّ أن الأحداث تقرر عكس ذلك.

هناك اعتقاد أن من المستحيل أن يتواصل معك الأجانب، إذا لم تكن تتقن لغتهم، وهذه الفكرة المسبقة تصدر عن ناقصي خبرة، إذ يكفي أن تتقن نحو خمسين كلمة من اللغة الأجنبية، حتى يفهمك الناس المثقفون. وقد يكون من المفاجأة أن يفهمك جيّداً المرتزقة بمجرّد حركة جسدية. ففي فرنسا.. بلد الفكر المتطور، بوسعك أن تتكلم اليابانية مع أناسٍ لا يحسنون إلاّ لغتهم. أما إذا استنجدت بالمال فإن كلّ شيء سوف يسير على أحسن ما يرام.

ولما كان استعمال الهودج، غير محبب لدى الأوروبيين، فقد وجدتني مجبراً على استعمال السيارة، رغم الفارق الكبير بين هودج

سميك اللِب مرفوعٍ بأناة، وتحركه الريح وبين هذه العربات ذات الضجيج الصاخب والتي تُدوّي على الطريق. إني لأعجب من الفرنسيين الذين لا يمتنعون عادة عن الأشياء الممتعة، فكيف لا يرغبون في الهودج على الرغم من أن له منافع عامة. ولكن وحسب ما يمليه الضمير هل من الأحسن إعطاء الخبز للناس أم الشوفان للأحصنة؟ أليس من الأجدى في هذه الحال توظيف ما بين 500 و600 ألف من الأفراد الذين لا يملكون من الطاقة إلاّ أذرعهم والتي لا يحسنون استعمالها في الوقت الحاضر؟

هذا أمر سوف أُحيله إلى الحكومة الفرنسية.

في مرسيليا، وكما هي الحال في أغلب مدن فرنسا، يوجد محل على الأقل من بين كل خمسة محال، يتجمع فيه الناس لاحتساء الجعة أو الخمر. ولما أعياني السير عبر شوارع المدينة قررت دخول أحد هذه المحال المفتوحة في وجه جمهورٍ من الناس طغى عليه التراخي والكسل. وقد اجتذب انتباهي شعار كان مكتوباً على لافتةٍ كبيرة معلقة على الباب، ظهرت فيها صورة موظفٍ كبيرٍ ومضحك الشكل وهذه هي عبارته: «عند أمير نانقزين».

وبمجرّد أن وطأت قدماي المحل، تفطّنت إلى أن أغلبية من كانوا فيه ندماء، ومدخنون يمثلون كل طبقات المجتمع، وقد تفحصوني من دون أي تورّع من رأسي حتى أخمص قدميّ. طلبت بلغة فرنسية قابلة للفهم كأساً من الشاي المعطر، الأمر الذي أضحك نحو 20

من رجال جسورين وسيئين كانوا في المحل. وقبل أن آخذ مكاني، وأجلس حصلت جلبة في المحلّ وفي اللحظة ذاتها صاحت ثلاث من النساء كن موجودات هناك: فرنكور - فرنكور - فرنكور.

استغربت في البداية من سماع هذا الاسم. وأنا هكذا، اقترب مني وحيّاني بأسلوبٍ رفيعٍ وبلغة يابانية، رجل قصير وبدين كانت قسمات وجهه تشعّ بالفرح.. كان أشقر اللون، مع ميل واضح إلى الصهبة، كما كانت عيناه في زرقة السماء. تفحصت بانتباه هذا الرجل الذي جعلني أستفز ذاكرتي، وكان بدوره لا يفارقني بالنظر والتثبت من مظهري، حتى صاح قائلاً: يا إلهي: ألست الدكتور «كوان فو»؟

- بالضبط، لقد تذكرتك الآن. وهكذا بعد ربع ساعة أصبحت أنا وفرنكور أحسن صديقين.

ولما كان الإنسان المتواضع لا يسارع بالحديث عن نفسه، إلا إذا اقتضت الحاجة ذلك، فقد قادني فرنكور للتعرف على التقلبات التي طرأت على حياته، بدءاً بناجازاكي.. أين تعرفت إليه، وانتهاء بمرسيليا.. كيف أصبح أحد مواطنيها. هذا الصديق فرنكور هو واحد من هؤلاء الناس الذين يمثلون إحدى المفارقات، فخياله الواسع لا يساعده على أن يكون غنيّاً، بينما يحصّنه فكره الواسع ضدّ حالة الفقر والرضا بها.

وحسب بعض الناس، إن تاريخ حياة فرنكور هو تاريخ شخص مجنون. في حين يرى بعضهم الآخر أن حياته هي حياة إنسان صاحب

ذكاء استثنائي، إذ إنه في ناجازاكي كان تاجراً، وفي سومطرة طبيباً، وفي مانيلا رساماً. أما في باريس فقد كان على التوالي خادماً ونساخاً، وعازفاً وممثلاً. وفي نهاية المطاف، كان في مرسيليا وكيلاً لمقهى.

بادرني إذاً فرنكور بقوله: سعادتك، ستقوم في رحلتك هذه بدراسة عادات شعب كريم وحسن الوفادة.. شعب صريح العبارة، ومستقيم السلوك، ومع ذلك فلا مناصَ من أن تكون حذراً.. سيتكالب عليك النصابون من كل جانب، وستجوب أرضاً تنمو فيها كل المنتوجات، ويتجمع تحت سمائها الجميلة كل ما يولّده الخيال، ويستنبطه العقل. سيفاجئك جمال مناخنا، ولكن، مع كل هذا كن حذراً، لتكن محتاطاً، وليكن خروجك نادراً في المساء.. لا تخرج أبداً في الساعات الأولى من الصباح، لأن أمراض الصدر منتشرة في ربوعنا، وهي تقضي على ثلاثة أرباع الناس الأجانب.. إياك أن تتعرض للطقس البارد، وحذارِ من فرسان الصناعة.

قلت: كفى، ما الذي تعنيه بفرسان الصناعة؟

– إنّهم النشالون المهرة

– إنه لأمر غريب، ويستدعي التفكير. كنت أعتقد دائماً أن الفروسية هي حياة النخبة، فكيف يصح أن يكون على رأس هذه الصناعة في فرنسا نفر من السفلة الخسيسين؟ تهت في الأمر!

ثمّ واصل فرنكور حديثه: أمّتنا أمّة شريفة للغاية، ولا أحد يشكّ في ذلك، ولكنك سوف تجد شخصاً واحداً على الأقل، من بين ثمانية

أفراد لا يتورّع عن أن يأخذ شيئاً مما تملكه، إذا سنحت له الفرصة. كن حذراً، فاللصوص المحترفون قليلون، لأن لكل اللصوص في فرنسا مهناً مُعلنة. الهواء الذي تتنفسه أصابه التلوث. تجد اللصوص من بين أصحاب اللباس الأسود مثلما نجدهم من بين أصحاب الثياب البالية. وأكمل فرنكور كلامه: إذا كنت لا ترغب في أن يخدعك الآخرون، فتصدّى للناس المتعجلين الذين يقبلون على مصافحتك بمودة، بينما تمتد أياديهم إلى جيبك.. تصدّى أيضاً لصديق الأمس، الذي يدعوك اليوم للعشاء حتى يكون له الحق في أن يقترض منك 20 لويزا من الغد. تجنّب الشخص الذي يدعي بكل حماسة أنه يحرص على مصلحتك، لأنه لا يسعى إلاّ لتحقيق مصلحته وعلى حسابك. لا تغرّنك المباهج وكذلك ما يبدو من خطورة في بعض الأمور: هناك نصابون يعرفون كيف يستعطفون الناس، وهناك لصوص لا تبدو عليهم صورة الانحراف.

– قلت: إذاً، من الذي أثق به؟

– لا تثق بأحد! إذا أردت ألاّ تُعنّف أو تُسلب، فافطم نفسك عن الشهوات التي لن تمتنع آلاف الفاتنات الباريسيات عن تحريكها فيك، حيث توجد في المدينة أحياء يغرق الشخص ثروته فيها بكل سهولة مثلما يضيع الجنيه في عرض المحيط.

إن من أكثر النصابين فتكاً بالمرء بعد النساء المرابين، ثم ثعالب الأعمال ثم اللصوص المحتالين، وأخيراً، قطاع الطرق وهم أقل

خطورة لقلتهم. إنهم يترصّدون الناس في زوايا الطرقات.. لنتأمل مصير هذه الكتيبة من الأشقياء: الأوغاد الذين يشهرون مسدساتهم ليطالبوك بتسليمهم المال الذي في حوزتك ينتهون إلى منصة الإعدام أو الأشغال الشاقة. أما قطاع الطرق الذين يختطفون حلية أو حافظة نقودٍ فإنهم يقضون مدة طويلة من عمرهم في الزنزانات. ولكن أصحاب الأعمال الذين يتعاملون مع الناس في وضح النهار ويستولون بخبث على ثروات الآخرين يتعرضون للسلب ولكنهم في معظم الأحيان محل تقدير المجتمع.

وكذلك الحال بالنسبة للمرابين الذين يستغلون بطريقة مخجلة، الفقراء السذّج ويقودونهم بالحيلة إلى حتفهم، فهم أيضاً محل حفاوة في كل مكان. أمّا النساء اللائي يحطّمن ويذللن ويقتلن فهنّ المعشوقات بل المعبودات.

– قلت هاتفاً: هل الحكمة الفرنسية التي لطالما تمت الإشادة بها وهمٌ؟

– ثمّ إنني، وقبل مغادرة مرسيليا إلى باريس، أردت القيام بجولة في المدينة بصحبة فرنكور، الذي أوصاني بأن أتحقّق من الأشياء قبل الحكم عليها، مضيفاً: ليس من الضروري أن تدرس لمدة طويلة طبائع الناس لتعرفهم بعمق، فهم ينكشفون بكلّ يسر. ثمّ واصل فرنكور قائلاً: الحياة في مرسيليا تغلب عليها الشفافية، بينما في باريس يطبخ كل شيء وراء أبواب مغلقة: تنزل إلى الشارع لتكتشف أموراً باهرة،

فتجد كلّ شيء قد رُتِّب، بل جُهِّز بكامل الدقة. هنا في مرسيليا الأمور مختلفة، فأبناء هذه المدينة يولدون، ويعيشون ويموتون خارج بيوتهم. إنهم يتصايحون، يقسمون، ينشدون، يتجمعون، يتاجرون ويفصحون عن كل شيء في وضح النهار. أما عندما يعودون إلى بيوتهم، فإنهم يتصرفون كأزواج طيبين ويسارعون إلى زوجاتهم.

مواطن مرسيليا، يكره بالفعل الوحدة، ويرعبه الهدوء، ويقتله السكون. إنه يفضل الإفلاس وسط الصخب على الغناء في السكون، وهذا تصرّف شبيه بريح «المسترال». أعترف بكل تواضع أنني لم أر في اليابان مواطنين على درجة من هذا الذكاء المتّقد والمبهر.

ثمّ واصل دليلي فرنكور: ستكون مفاجأتك أكبر لو حدّثتك عن تاريخنا، ولكن ذلك سيأخذ منّا وقتاً طويلاً. ولعلمك إن تاريخ مرسيليا يعود إلى عهود من البطولة، كما أنها في سنوات المجد أُصيبت بالطاعون خمس أو ست مرات. اليوم وعلى غرار كل المدن المتّقدة، تقوم مرسيليا بعملية هدم ليُعاد بناؤها على أحسن وجه.. إنها تنشر في العالم زوارقها، صابونها، زيوتها وآدابها، في حين نجد باريس، مدينة الصحافة بامتياز ممتلئة بأبناء مرسيليا، لأن كلّ واحدٍ منهم هو بالضرورة رجل آداب. فأكبر مؤرخٍ لبيبٍ من مؤرخي فرنسا، لا يعدو أن يكون عندنا صحافياً صغيراً وفاشلاً. وهذا ما يدل بكل تأكيد وفي نظر أبناء هذه المدينة على أن أيّ واحدٍ من صحافيينا يمكنه إذا ما رغب في ذلك أن يكون من أحسن مؤرخي فرنسا. إن أصغر شاعرٍ

أو قاصٍ متوقّد الذكاء أنتجته أوروبا، قد ولد في هذه المدينة، ولا أحد هنا يعبأ بذلك، لأنه دخل في طور الشيء المعتاد، كما أن أحد أكبر النجاحات في مجال المال بعصرنا هذا، يعود أيضاً إلى مرسيليا. لقد تعودنا على هذه الأمور حتى أصبحت طبيعية.

ففي حاضنة الأفكار التي توجد عندنا لا ننتبه إلى التميّز، فنحن لا نستطيع أن نميّز بين الجبال إلاّ عن بعد.

أعلمت مدير النزل بأنني سأودعه، وأودع مرسيليا، فأجابني: سعادتك! لقد أقمت بيننا مدة قصيرة، ونحن نأسف لكوننا لم نمتّعك بحسن الوفادة مدّة أطول.

فقلت: أي ضيافة شبه مقدّسة. ألم نُبعد بعد من كل أصقاع العالم؟ ثم إنني استذكرت ما كنت قد قرأته منذ سنوات في كتاب صغيرٍ، حول العادات الأوروبية، وخصوصاً فرنسا التي تعدّ حسنة الوفادة مع الأجانب. وهذا بعض ما تذكرت:

«لقد وجدت ألمانيا ليسافر الناس إليها، وإيطاليا ليقيموا فيها، وبريطانيا لغذاء الفكر، بينما وجدت فرنسا ليعيش الناس فيها. ففي فرنسا، الناس حسنو الوفادة عملاً بالواجب، وليس بدافع تلقائي. لقد تنازع الناس كثيراً على السياسيين الذين تقدموا للويس الرابع عشر، إذ إنه كان أمراً مخجلاً لرجل شريف أن يقبل أدنى مقابل منهم».

كدت أرضخ للطلبات الكريمة التي ألحّوا بها عليّ، لمواصلة الإقامة بينهم ولكنني تمسّكت بقراري، فالقرار عندما يُتخذ ومهما

كان صغيراً لا ينبغي تأجيل تنفيذه. وهكذا كان قرار سفري قراراً نهائياً...

أصبح فرنكور دليلي المتحدث باسمي.. كان يلازمني في تجوالي. فتجاربه عن الحياة غنية، وتمكّنه من معرفة الأشياء سريعاً، وهو فصيح في اللغة الصينية ويتكلم اليابانية أيضاً بوضوح كاف.

وهذه المعرفة ليست متوافرة بالقدر الكافي لدى أمة تدّعي، بل تعتقد أنها أمة متعلمة.

جمع فرنكور إذاً أدواته، وصافح جيرانه، ثم التحق بي مثل خادم وفيّ. وقبل أن أغادر مضيّفي رأيت أن من الواجب القيام بزيارة مجاملة لشكره، حيّيته بأرقى أسلوب، وقدمت له عرفاني الدائم، ثم ونظراً لاعتقادي بأن العادات الفرنسية قد تغيرت خلال القرن الماضي، وضعت على مائدة ورقة من فئة المائة فرنك، ممهورة بإمضاء الحكومة الفرنسية.

لم أغادر حتى جاءني خادم مُبدٍ علامات الاحترام، ليسلمني قائمة حساب حوَتْ مبلغاً مَهُولاً، وقد تمّت ترجمتها لي بلغة يابانية سليمة. استوعبت من هذه القائمة أنه إذا كان حسن الوفادة– نظرياً– موجوداً غالباً في الغرب، فإن ترجمته إلى واقع نادرة. ورغم كرمي، بقي عليّ أيضاً أن أسدد مبلغ خمسين فرنكاً إضافية فاستجبت إلى تسديد دَين لم أكن أعلم به.. كان ذلك عندما مدّ لي الخادم، الذي أخذ الحساب، يده متمتماً بكلمات فهمتها من سياقها: لقد كان يرغب في أن يأخذ

مقابلاً لتقديمه لي ورقة الحساب!

تخلّصت مسروراً من هؤلاء المرتزقة، الذين شرعوا في سلبي، وهم يغدقون عليّ علامات الخضوع والتبجيل، وأعطيت الخادم بعض القطع النقدية البسيطة ثمّ انطلقت نحو السيارة حيث وجدت شخصين في انتظاري: أحدهما كان ضخماً، شاحب الوجه، ولامع الخدّ فهمت من مظهره أنه يعمل في المطبخ، وقد طلب مني بإلحاح ما يسمونه عندهم بقشيشاً.. إنه لأمر مضحك، عندما يصدر عن عامل في مطبخ فبإمكانه أن يأكل ويشرب! ومع ذلك فقد أذعنت لطلبه وعندها انصرف.

أمّا الشخص الثاني فكان مرتدياً ثوباً أسود، وكان مظهره يبعث على الريبة. عيناه صغيرتان، وشعره محلوق وقد تقدم لي في تذلل وبعد أن تمنى لي كل النجاح وحياة الرفاهية، طلب مني أن أعطيه مقابلاً، فسألته: بمَ أفدتني حتى أعطيك مقابلاً؟

– أنا أشتغل في ساحة النزل .

– طيّب، لكنني لم أطلب منك خدمة.

– لقد سخّرتُ نفسي لأجلك، وأهملت كل شيء في انتظار طلباتك.

– ولكنني لم أحتج إليك.

– لقد كنت أجهل ذلك، بل افترضت العكس، ومكثت طوال الوقت أنتظر أوامر سعادتك.

عندها أدركت أنه لن تكون لي الكلمة الأخيرة مع هذا المحتال، فأعطيته ما طلب مني.

ومع كلّ ذلك لم يمر عليّ هذا اليوم من دون فائدة، فقد دفعني إلى التفكير، وتوصلت إلى إدراك منافع تقسيم العمل، وخاصة عندما يُستعمل لاستغلال المسافرين.

IV – أفينيون– ليـون

الوصـول إلى باريس

لقد ألحّ علينا وقت السفر، لنسرع فالقطار لا ينتظر. هكذا تكلّم فرنكور بصوت عالٍ، وهو ينظر إلى ساعته، ثم ومن خلال ضربتين أو ثلاث بالسوط للحصان كنّا وبسرعة أمام العربة. كان فرنكور لا يكفّ عن إعطاء التعليمات: لنسرع إلى أخذ التذاكر.. هيّا بنا ندخل هذه القاعة.. انتبه جيّداً لحقائبك.. يا إلهي أبعدوا عنّا هؤلاء المتسكّعين المحيطين بنا. حقّاً، إن أبناء مرسيليا لا تتغيّر طبائعهم.. انتظرني فسوف أعود.

وقد استطاع فرنكور أن يشق بصعوبة طريقاً داخل الحشد، وما هي إلاّ ربع ساعة حتّى عاد لاهثاً، ولكنه كان غانماً.

– هيّا بنا، قالها وهو يصيح. هذه هي التذاكر.. لقد أعانني الله في الحصول عليها.. كل ما كانت خاتمته ناجحة فهو حسن. لنصعد عربة القطار وبسرعة، فالجرس قُرِع، وقد كاد الوقت يفوتنا، اتبعني، سأختار صندوقاً.

– قلت: ماذا تعني بكلمة صندوق يا فرنكور؟

– نعم، وقسماً إنه صندوق. هكذا أجابني فرنكور الذي أضاف: وستأخذ ركناً من الصندوق، بينما سأحتل أنا الركن الآخر. هل تجهل أن المسافر في القطار هو عبارة عن طرد بساقين؟ هيّا بنا اصعد... ثمّ

إن فرنكور دفعني إلى مقصورة، ولما استقرّ بي الجلوس قال: والآن، لن نتحرك من هنا حتى وإن كان الداخلون علينا أمراء أو ملوكاً أو زوجات المركيز، أو دوقات.

- قلت: ولكن، ألا تفرض قواعد اللطف على الرجال أن يفسحوا المجالس للنساء؟ ألا تخشى أن يجلب لنا تصرّفك هذا ردود فعل مزعجة؟ فأجابني: كيف؟ ومن قال هذا؟

- هذا موجود في الكتب، التي تعرّضت للعادات الأوروبية وعرّفتني على أحسن خصلتين في الفرنسيين: الشجاعة واللطف. كما علّمتني أيضاً أن قواعد اللطف تفرض على الرجال أن يتخلوا عن حقّ التصدر في المجالس للنساء، على أن ذلك يمثّل أبسط قواعد اللياقة التي لو تجاهلها أحدهم لكان في وسع أي سيّد أن يذكّره بها بوساطة لمسة بالسيف على اليد.

- يالك من دكتور سليم النيّة! قالها فرنكور ضاحكاً، قبل أن يضيف: الكتاب الذي تتحدّث عنه كان كتاباً ممتازاً، ولكن الأحداث تجاوزته اليوم. لكلّ زمن عاداته، فأفكار 89، وحقوق الإنسان، والمبادئ الإنجليزية - الأمريكية و1830، والدعوة إلى المساواة التي برزت في عام 1848 كلّها غيرت هذه الامتيازات البالية. اللغة التي تعدل القانون تفيد بأن المذكر أنبل من المؤنّث. والحمد لله، نحن ندخّن، نبصق، نقسم، ونشخر في حضور النساء اللاتي مازلن يحببننا بالقدر نفسه الذي أحببننا به في الماضي.

لقد أجهز الجيل الجديد بكل قوة على قواعد اللطف، وهذا من العدل.. لقد استعاد الرجل استقلاليته إزاء المرأة يوم مماته، وكان ذلك أوضح صورة لحصاد ستين سمة من العصيان والمظاهرات والثورات.

على بعد مئاتٍ من قدد الشراع، يقف فرنكور على بوابة القطار، ويشير في الأفق إلى مدينة أفيون ثم يقول لي: انظر، هناك مدينة جميلة تحقّقت فيها أشياء عجيبة جدّاً، من ضمنها بناء قنطرة من طرف راعٍ رفع حجراً ضخماً بأطراف أنامله بينما كان يهزأ بأسقف عجوز.

الأعجوبة الثانية، وهي الأشهر تتمثل في حضور أكبر الأحبار الذين سادوا بحق ملايين الناس لدهر من الزمن. قد يكون مثيراً في يومنا هذا أن نشاهد مثل تلك العناوين، بل إن حبّنا الكبير للانعتاق والحرية هو الذي يدفعنا إلى أن نشعر بالحزن لمصير أولئك الأشقياء في إيطاليا والذين يعانون استبداد رجل يضع تاجاً على رأسه، وبابوخاً في رجليه. يجب أن تشعر بالشفقة يا دكتور، وأنت تعلم أن في ريف روما ما بين 600 و700 ألف مواطن يقبلون بالانصياع والتبريك.. إنه لأمر غريب، بل محزن ومضحك في الوقت نفسه. لكن أليست تلك حقيقة؟

نادراً ما رأيت فرنكور المحبب إليّ، أكثر حماسة. ويجب أن أقول، وأنا في كامل وعيي: إنّني لم أدرك في البداية خطورة ادّعاءاته حول البابابوية.. فقد كان يبدو لي أن الأصل في هذه الأمور أن هناك طامحين

يتمنون خلع سلطة، ليستولوا عليها في ما بعد، وأن هناك الآلاف من الناس البسطاء الذين يهلّلون من دون إدراك منهم لما يفعلون. وحكومة سماحة البابا هي في النهاية –ويا للأسف– حكومة! وهذا يعني كل شيء! وإذا كان لا بد من إزاحة كل سلطة مطلقة، لأنها لا تقوم بواجبها بإتقان، فإن خريطة العالم سوف تنقلب رأساً على عقب. أما الجانب الإيجابي الذي أسجله في هذه القضية فهو أن الديانة المسيحية تعاني كثيراً، بل إنها تنقرض. ولذلك فإنني عازم على إدخال البوذية للغرب. فعندما أعود إلى اليابان، سأجند الكثير من الرهبان للمجيء إلى أوروبا بغرض التبشير بالبوذية. وأتوقع لهم النجاح، لأنه وحسب تطور الأمور فلن تكون هناك مستقبلاً ديانة في جانب مهم من القارة القديمة. فالشعب الفرنسي الذي يعد في طليعة الرقي، حسم أمره بوضوح، وهناك شخصيات شهيرة تشجع الناس على المثابرة على هذا النهج.

النور الإلهي، كونفيشيوس، وبوذا.. سيجوبون العالم ويتمكنون من هذا الغرب الذي كان بالأمس فخوراً بمسيحيته!

اليوم، إن من يهدمون قلما يفكرون في البناء. وعندما يطاح بشيء لا يأتي ما يعوضه.. أينما تذهب هناك حالة من اللامبالاة الكاملة...

فالفرصة إذاً سانحة، هلمّ بنا أيّها اللاما والرهبان والسكسارا!

عند وصولنا إلى مدينة ليون الفرنسية، تجوّلت أنا وفرنكور في الأحياء والمرافئ والمعالم المهمّة في المدينة، ثم ما لبث فرنكور أن توجّه

إليّ.. بالسؤال:

- إذاً! ما قولك في ظاهرة هذه المدينة؟ وهل تبدو لك سعيدة أم بائسة؟ متقشفة أم فاسدة؟ خاملة أم حية؟

- أتوقّع أنها في آنٍ واحد، غنية وفقيرة.. تقية وفاسدة.. مجتهدة وبطيئة الحركة.

- حكمك صائب.. إن ليون في الواقع مدينة فقيرة، لأن مواردها التجارية ترتكز على البضاعة الفاخرة.. إنّها تشبه هؤلاء الناس المصابين بالاستقساء، والذين يبدون تحت تأثير مرضهم أصحّاء.

العامل هنا، بصفةٍ عامةٍ، مجدٌ ولكن من الممكن استدراجه بسهولة، ليصبح مثيراً للفتن عند المناسبات، ومتعوداً على عدم النظافة.. ذا مزاجٍ يميل إلى الروتينية والحزن والهمّ. أمّا السادة الذين يسيّرون هؤلاء العمالَ فإنهم متحسبون، متحفظون، مبطنون أكثر منهم متدينون، وهم فوق ذلك ذوّاقون للفن، ويعرفون طريق الثروة، كما يتقنون اختيار أحسن الصناعات لأنهم يحققون فيها مصالحهم.

بعد دراسة المدينة في فرنسا، فكّرنا في العودة إلى باريس، وما لبثنا أن اتجهنا إلى الإنجاز، حيث لامسنا حدود المدينة بعد ثلاث ساعات من انطلاقنا، ومن بعيد سمعنا ضجيج المدينة، الذي يشبه إلى حد ما، الزمجرة الصمّاء لوحشٍ ضخمٍ وهي تقرع الآذان.

كنت تشاهد المداخن الكبيرة، وكانت تبدو كأبراجٍ وهي تتزاحم في الضواحي، وتبعث في الأفق أشرطة داكنة من الدخان. وكان

الضجيج المنتشر للمصانع والمعامل، يتردد في كلّ جانب، ومن الأتون كانت تنبثق الشرارات، فيُطوى الحديد ويُلوى مثل العجينة تحت الضربات المتكرّرة للمطرقة والآلات. المدن الكبرى محاطة كلّها بحزامٍ تتجمع فيه حثالة الشعب، مثل نوع من اللعاب الملوث الذي يُبصق. وباريس لا تشذّ عن هذا فقد طوّقها حصن مظلم من الأحياء، كأنه سور، وتكدّست فيها الشقاوة والرذيلة. كما أن الغرغرينا ضربت في قلب العاصمة. ففي ضواحي المركز يأخذ الحب اتجاها سافلاً ومن غرائب الأمور أن ترى منبوذي المجتمع الذين كانوا بالأمس يحومون على مقربة من قصر العدالة التي تلاحق يومياً الجريمة بالإدانة والعقاب، وكأنّ هناك قوة خارقة تجذب هؤلاء الأشقياء إلى الهوّة التي ستبتلعهم.

لقد حصل سفّ وسط باريس، وتم هدم المساكن القذرة التي بنيت على أنقاضها منازل جميلة سيسكنها من دون شك الذين يحكمون على الناس، ويدّعون تمثيل الله في الأرض.

عندما أدخل باريس، فإن أول ما يثيرني بصفة خاصة هو الهواء النقي، وأجواء الأفراح الحياتية التي تدخل البهجة في النفس.

سعيد هو الشعب الفرنسي، لأنه ينسى الأحزان بسرعة، ولا يشغل كثيراً بالطوارئ المحتملة!

V– الاستقرار في باريس

أسكنني فرنكور في نزل فرنسا الكبير، وهو عبارة عن إقامة رحبة وفخمة سأعود للحديث عنها لاحقاً. وقد أثارت نظرة الناس لي في النزل، بعض الأحاسيس لديّ، فبدوا وكأنهم ينظرون إليّ بنوع من الإهانة التي تنمّ عن غباء. وقد فهمت وقتذاك أن هندامي هو الذي جلب لي هذا الانتباه المثير للسخرية، أكثر مما تسبب لي فيه لوني، فقرّرت أن أنتظم في ملبسي.. طلبت من مسؤول النزل أن يحدد لي موعداً مع خياط، وقد جاء فعلاً ليأخذ المقاسات بوساطة شريط مرقم، وعلى الفور كساني من رأسي حتى أخمص قدميّ على الدرجة الباريسية الحالية.. الدرجة التي يقع تفخيمها أكثر، ولكنها من دون شكّ الأكثر مدعاة للحمق. ومع ملبسي الجديد، أصبحت بكل تأكيد مقبولاً، فكان الناس بالكاد ينتبهون لي. ورغم أن هذا الحادث يُعتبر عادياً، إلاّ أنه دعاني إلى التفكير في دور اللباس والمظهر في العلاقات بين الناس في جميع أنحاء العالم. وتوصلت إثر سلسلة من الاستنتاجات إلى طرح السؤال التالي: هل المظهر هو الذي يصنع شخصية الرجل أم العكس؟ وخطر ببالي أن المدافعين عن الوطن، ما كان لهم أن ينجحوا في كسب حماسة عقول الشعب لو لم يكونوا مرتدين بزاتهم الرسمية، كما تذكرت هذه الحقيقة الخالدة وهي أن الشعب لا يعترف بعظماء في مباذل، وأنه إذا كان بعض الناس

يقدر الجدارة، فإن اللباس المعبّر عن الأسماء والألقاب يحظى أيضاً بالتقدير.

كانت أول نزهة أقوم بها، وأنا في ثوبي الجديد والمضحك. وكان فرنكور إلى جانبي متطلعاً إلى أسئلتي بل إلى استباقها. ولما كان قد سبق له أن أقام في باريس لبضع سنوات، واعتباراً لما اكتشفه عقله المتعطش من أسرارها، فقد كان مأمولاً أن أحصل على كمّ هائلٍ من المعلومات العجيبة. ولكن وكما سنرى في آخر هذه الحكاية، فإنني لا أثق كثيراً بهذا الرفيق المرح.

كانت هناك مجموعة من الناس من كلا الجنسين، في ثيابٍ غاية في الأناقة، تقطع الميدان الذي كنّا نسير فيه. وقد استطعت أن ألاحظ وباستغراب أن معظم الرجال كانوا يتكلفون غض النظر، وأنهم كانوا يضعون على أعينهم منظاراً مزدوجاً، وهم يحركون عكازاً مثلما يفعل الأعمى بعصاه. أما النساء فقد فاجأنني بالفخامة التي بدت عليهن، وظننت لوهلة أن النساء اللواتي يتباهين بهذه الزينة في النزهات هنّ على قدر من العفة في بيوتهن.

غير أنني كنت على خطأ وبكلّ تأكيد.. فقد عرفت أن النساء الفرنسيات لا يخشين من تعرض سمعتهن لدى الناس إلى التشويه، وذلك عندما يسلكن طريقاً لو سلكته النساء في الشرق لأدى بهن إلى الموت على أيادي أزواجهن. كما فهمت أن الرجال في الغرب يتعاملون بتسامح في كثير من الأمور.

وأنا مبهور بهذا الموج من معرض الثياب الزاهية، وشبه ثملٍ بالنظرة السحرية للعديد من الأشخاص الذين بدت عليهم الفخامة، والذين يشيعون جوّاً من الأريج، وعلامات من اللذائذ لم أتمالك نفسي فقلت:

باريس هي بكل تأكيد، عاصمة الملذات.. لم أر في حياتي ولا حتى في أوزاكا نساء أكثر رشاقة، وأكثر سحراً من نساء باريس!

واهاً يا عزيزي فرنكور.. أرى أن فلسفتي تنهار، وأن أقوى مبادئي تتطاير. لو لم أكن أجرّ ورائي خمسين سنة طويلة، ولولا تجعّد وجهي لسمحت -لَعَمْرِكَ- لنفسي باتباع نزوة التمتع مع واحدة من هذه النساء بارعات الجمال .

فأجابني فرنكور: السن لا يجب أن توضع في الميزان، ولو عرفت جيّداً عادات بعض نسائنا الفرنسيات، لأدركت أن لكبار السن من الرجال حظوة لديهن أكثر مما للشباب.. الدلال قضى على الحب منذ زمن.

قلت بسذاجة: إذاً، هل يمكننا أن نقول: إن الراقصات الهنديات لم يكنّ سوى بنات بخيلات؟

– من دون أدنى شكّ، هكذا أجابني فرنكور وكلّه انتباه.. إنهن يدركن أنهن عندما يدخرن المال، فسوف يجدن بالتأكيد في يوم من الأيام زوجاً شاباً.. لطيفاً وحسن المعشر. وفي هذه اللحظة مرّت بيننا امرأة على قدر لافتٍ من الجمال، جعل كل الأنظار تتجه نحوها..

كانت تسرّح النظر في الحشود من الناس وهي تمشي باتزان، فخلتها لا تعير اهتماماً لعفتها.

– سألت فرنكور: أليست تلك امرأة شهيرة في عالم الملاهي؟

– عفواً، هذه امرأة تبدو شريفة وهي كذلك.

– باسم كونفوشيوس، كيف تميّز العفة في فرنسا؟

– بأيسر ممّا تظنّ. فالرجل الباريسي لا يخطئ الظن، والمرأة العفيفة تمشي باعتدال من دون أن تدير رأسها، كما أنها لا تجرّ وراءها الكلاب، وترتدي حسب الدُرجة التي شاعت منذ ستّة أشهر والتي ابتكرتها نساء غادرن الحياة.

– هذه لطائف رقيقة يا فرنكور!

– ربما، لكن لا توجد وسائل أخرى للتمييز بين الأشياء.

VI- نـزل فرنســا

النزل الذي أقيم فيه ليس بالإقامة العادية. فكل غرفه تحمل أرقاماً وهي متصلة بمكتب المدير عن طريق التليغراف.. سعة الغرف متقاربة، ولكن طريقة تزيينها وتأثيثها مختلفة. فبعض الغرف تشبه في فخامتها، صالون امرأة جميلة لأحد كبار الموظفين، بينما كان أثاث الغرف الأخرى بسيطاً جدّاً. في الطابق الأرضي من النزل يقف موظف كبير، ويظل ثابتاً في ممرّ يسلكه أهم المقيمين في النزل.. يقف باحترام أمام مدير النزل.. يُسوي شواربه.. ينظر إلى النساء أثناء وقت فراغه الكبير.. يتلهى بتوبيخ الأطفال الصغار.. يقرع آذان صغار مساعدي الطباخين ويطارد الكلاب والقطط والفئران.

وعلى مقربة من ذلك هناك المطبخ المزدحم بالعاملين من مختلف المهام.. هناك ثلاثون شخصاً، من بينهم رئيس المطبخ، والندلاء الذين يشرفون على إعداد الطعام وبين الحين والآخر يتذوقون العصير والصلصة.

وعند انتقالنا إلى القاعة المعدة للأكل، شاهدنا الخدم وهم يتحركون معاً في حالة من الهياج، ولكن بنظام فريد.. كانوا يتبادلون عباراتٍ خاصة بهم، ويكررونها كأنها أصداء الأروقة. ومع كل الروحات والغدوات كانوا يضعون كل شيء في تناظر تام.. فقد كانوا متأنقين في لباسهم أكثر من رؤسائهم، بما لا يسمح بالمقارنة.. كما كانوا يرتدون

ثياباً سوداء وربطات عنق بيضاء وأحذية مبزقة ويتشابهون إلى حد ما لدرجة أن المرء قد يخطئهم. إنهم مطالبون بحسن الهندام، وباحترام آداب السلوك، كما يجب عليهم من ناحية أخرى، وحتى تكون إدارة النزل راضية عنهم، التخلي عن كل شعور بالاستقلالية، وعليهم أيضاً أن يقبلوا إذا اقتضى الأمر ومن دون أي اعتراض بالصفعات والضربات. كما أن عليهم تقويس ظهورهم لحمل المسافرين العجز، وتقديم المبسقات لبعضهم والمغاسل لبعضهم الآخر. وفي كل الحالات يتوجب عليهم ألاّ يرفعوا أصواتهم أبداً ضد نظام العمل في النزل.

وإلى جانب الخدم، هناك مشرفون أشدّاء مع مرؤوسيهم.. مرنون إلى حد التذلّل أمام الأجانب من ذوي الأهمية، كانوا يجوبون القاعة جيئة وذهاباً، بلا انقطاع، ويتعهدون بمنشفة رفيعة المقاعد والطاولات والصحاف الموضوعة على ذمة الضيوف المتميزين. وبين مسافة وأخرى يقف في الزوايا بعض الأشخاص على هيئة ممتازة، يتحدّثون بندّية مع الأجانب.. كانوا يديرون الظهر ليدوّنوا بسرعة بعض الأشياء.. فهم يبدون في نظر الخدم، كأنهم يراقبون الأجانب، وفي نظر الضيوف كأنهم يتفقّدون الخدم!

أي تفاصيل أخرى، كنت أحب إيرادها عن هذا النزل العجيب الذي يجد فيه الضيف الأجنبي من أسباب الرفاهية الحقيقية ما لا يجده في بيته، ومع ذلك فعليّ أن أتغافل عن تلك التفاصيل، لأنني سأتعرض لأشياء أخرى أهم من التي ذكرتها.

كنت قد تهيّأت لأخذ نصيب من الراحة، بعد تعب اليوم عندما طرق فرنكور باب بيتي ليفيدني بأنه إذا كانت لي رغبة في الاطلاع الآن على عادات المجتمع الفرنسي فإنه على استعداد ليصحبني إلى حفل ساهر.

– قلت له بصوت عال، وأنا أنظر إلى عقارب الساعة التي تشير إلى العاشرة ليلاً: أتقصد غداً ليلاً؟

– فأجابني: إن العبارة لا تغير شيئاً في الأمر، ثم أعاد: هل تريد أن أقدمك الآن إلى مرتادي الصالون؟

– قلت وأنا أعلن عن موافقتي بسرعة: كيف ذلك؟

– فأجابني: لننطلق حالاً!

وعندها خرجنا ...

VII- حفلة راقصة

كانت الساعة تشير إلى العاشرة والنصف ليلاً، عندما دخلنا صالوناً صغيراً قد ازدحم إلى حد الاختناق بعدد من الأشخاص يفوق عشرة أضعاف سعة القاعة.

كان هناك عدد من الشموع، وثريّا تنير القاعة بتألّق. في البداية أشير إلى أن حدسي لم يكن ليخطئني. فقد كان المنظر خليطاً من العري واللباس الساطع والحلي المتلألئة والجواهر والورود، وكانت العطور تخترق المكان لتنتشر في ذلك الجوّ الساخن... وقتها شعرت بالانبهار، ولكنه كان شعوراً عابراً.

لباس الرجال كان أسود، كما أن هيئتهم كانت أكثر وقاراً وتصنعاً من هيئة أسقف في قدّاس.. كل ذلك جعلني أراجع أفكاري، في وقت بدأ ينتابني شعور بالخيبة. وعندما اقتربت من دائرة النساء اللاتي خيّل إليّ أنهنّ فاتنات، كان فرنكور ينظر إليّ بخبث.

فقلت له:

- نحن بلا شك في ضيافة شخصٍ مهمٍ أو على الأقل عند رجل غنيّ.

- بل أنت في صالون بورجوازي خاصٍ بمجتمع الأجراء!

- إذاً، فالأجراء أناس سعداء.. يجب أن يحظوا بمعاملة راقية من الحكومة، حتى يتمكنوا من مثل هذه الفخامة!

– خطأ في خطأ.. أيها الياباني المحبّب، إن سيّد هذه الدار رغم مظهره الذي يوحي بالثراء، لا يتقاضى إلا أربعة آلاف فرنك، كما أنه لا يملك ثروة خاصة، وزوجته كما ترى هي مثله غاية في الأناقة.

وأشار فرنكور إلى رجل ضخم متكئ على إطار المدفأة.. كان يبدو وقد أُسبغت عليه كل فضائل الثراء. فحالته الصحية جيّدة، وعروته مزيّنة بعدد من الأوسمة، وهذه الوضعيّة اكتسبها نتيجة حالة عدم الحراك التي عاشها على كرسي محشوّ طيلة عشر سنوات.

– قلت: يجب أن ننتظر وليمة بعد هذا الرقص، فأنا لم أعد قادراً على فهم هذا الحفل جيّداً!

– إنه استعراض لنوع من الإمتاع البسيط. لا تذهب بعيداً في تأويل سبب التقاء هذا الجمع. إن هذه الفخامة الظاهرة تخفي أنواعاً من الشقاوة الحقيقية، وهذا النوع من الكبرياء لضحايا المركزية والإقصاء المنافي للمعقول هو ما يستوحونه من تعاطي التجارة، ويدفعون ثمنه تذلّلاً آلاف المرات في اليوم. فهذا الشخص مثلاً يقيم حفلين في السنة، وأحياناً حفلاً واحداً، لكنّه يجد نفسه مجبراً على أن يتوسل المنح الدراسية لأبنائه. وأما بناته فإنّهن لا يتزوّجن، لأنهن لا يملكن مهراً. فحياته كلّها سعي محموم للتوفير، وجري لا يتوقّف وراء المدينين. ترفل زوجته بالحرير وهو محل حفاوة في الصالونات، ولكنك إذا ما زرته وجدته يمسح حذاءه بنفسه، بينما تكون زوجته منشغلة بتنظيف البيت.. كما أن فطورهما يقتصر على كأس من

القهوة. أما في العشاء فهما يأكلان قليلاً من الخبز مع الزبدة من دون نبيذ.

– لكن كيف تختارهم الحكومة لخدمة الناس؟

– الحكومة لا تختارهم، بل هم الذين يتوجهون إليها. إنهم يتوسّلون ويستعجلون، فهم يسارعون بعرض خدماتهم على الحكومة، التي تسحقهم مثلما يُسحق متعصّبو آسيا تحت عربات المعتقدات الهنديّة. مئات الآلاف يعرضون خدماتهم على الحكومة، ورغم الصعوبات الكثيرة، والموانع العديدة فإن عددهم في ازدياد، فثلاث إلى خمس سنوات من الرهبنة الغبية والعمل غير المثمر، لا تثني أحداً... ألم أقل لك إنهم متسرّعون.

وفي ما يتعلق بتفسير هذا الضلال في الرأي، والذي يؤدي بأناس أذكياء إلى تفضيل حياة العبيد تلك على متعة الحياة المستقلة التي توفرها الصناعة والتجارة والفلاحة، أقول: إن ذلك ليس في وسعي، فأنا أكتفي بتسجيل تلك المظاهر فقط.

لقد طفح الكيل، عندما تفقد مستعمراتنا التي أصبحت قاحلة، آخر مزارعيها. وبذلك يصبح هذا الكون بكل خيراته العجيبة والذي يثير طمع الأمم المجاورة ويصنع كبارها وأثرياءها ويشيع الازدهار، موصداً أمام فرنسا!

كان فرنكور يتحدث بغضبٍ كبيرٍ فحاولت أن أجعله يتوقف عن الحديث.

قلت له: بما أننا ندرس العادات، فمن تكون هذه المرأة النحيفة إلى حدّ ما، والتي تبدو جميلة جدّاً وترقص بهذا القدر من السخاء؟

هنا أطلق فرنكور زفرتي اكتئاب ثم ابتسم وأجابني:

هذه المرأة جميلة بحق، وأنا أقرّ بلطفها، لكنها امرأة ذات دلالٍ، وهذا ما أفسد كلّ محاسنها.

لاحظ كيف تنظر إليك! إنّها تثير كل انتباه.. ترضى بتأوه الآخرين، وتمتلك كل القلوب. ولو كانت رزانتك تسمح لك بكل هذه الحركات الموزونة التي تسحر الناس، لكان بوسعك أن تحس بكل تأكيد بجسمها الناعم وهو يرتجف بين يديك... سوف تضغط بيدها على يدك، وستحدّق بعينيها السوداوين اللتين عشقتهما في عينيك، لتنفذ نظراتها إلى قلبك، وتستمع إلى شكواها من رتابة الحب عند الرجال.. ستقدّم هي المبخرة ليوضع فيها البخور، وستقول لك إن حياتها ما هي إلاّ حياة صراع، وإنها هي التي تطلب المواجهة، غير عابئة بالضرر الذي تلحقه بالعقول التي تأسرها.. إنها تجهل أن التواضع هو أحسن الضمانات وأن نظرة المرأة الفاضلة تفرض الهيبة والاحترام على أكثر الناس جرأة. هل صادفتهم نساء بهذا الدلال؟

النساء ذوات الدلال قليلات. وإذا وجدن فإننا نحبسهن في البيوت!

ونحن نتحدث، كانت أغلبية النساء المحيطات بنا نصف عاريات. وعندما هممت بسؤال فرنكور عن هذه العادة الغريبة، مرت إحداهن

بجانبنا ضاحكة ومنحنية على المرقص.. كانت مقوّرة بشكل مُهين.

- إنّها الدُرجة.. علق فرنكور!

- أي دُرجة؟

- نعم أيها الياباني الفاضل. إن الدُرجة عندنا عبارة عن قانون يُنظم لدى أكثر الشعوب رُوحانية (أو هكذا نظن أنفسنا) قواعد اللباس المقبول.

- بل قل يُنظم كيف نتعرّى!

- سترى أن هذا القانون أكثر تغيّراً من الثروة، وأكثر ليونة من النزوة التي تلهمه، وأكثر قساوة من أحكام سلطان في أفريقيا، يأتي من حيث لا يعلم ثم يحاط ببعض الطائشين، وبامرأة ذات دلال، وراقصة على الحبل، وبفتاة للمتعة فيفرض سلطانه على الناس دون أن يحرك أحد شفتيه. وليكن في ذهنك أنه لا ينبغي لهؤلاء النساء اتّباع هذه الدّرجة بنوعٍ من الجنون، ليكشفن عن هذه الزنود المعظّمة، والصدور التي لا تتناسب حتى مع التماثيل القديمة. أوليس من الحكمة والذوق أن يُغض النظر على أن يكشف في وضح النهار عن مثل هذه التشوهات؟ ولكن لنعد إلى المرأة التي أثارتك منذ قليل.. إنها امرأة مشهود لها بالتقوى، وقلبها عامر بالإيمان!

- ليس هنا! قلت بسرعة!

- آهٍ، لا تحكم عليها خطأ.. إنها تهاب التوفيق بين المتعة واحترام واجبات الدين، وهذا كل ما في الأمر... تكون اليوم منغمسة في

اللذة، وتكون غداً قلباً وقالباً في الكنيسة، حيث تقبل على طقوس العبادة بكل حماسة! إنّها امرأة تحسن للناس وهي عضوة في كل التجمعات، ومؤسسة للكثير من المجمعات التي لا أحصيها.. لو ذهبت إليها، وأعلمتها أن الأطفال اليابانيين معرضون لخطر الخنزير، وأنهم يطلبون مساعدتها، فإنها سوف تجمع بعض صديقاتها المقرّبات، وسوف ترسل إلى المدير الروحي عندكم مبلغاً من المال، لن يتسنى لأطفالكم الضحايا الحصول عليه من جهة أخرى مطلقاً.

- أنت أيضاً ضحية.. هكذا رددت على فرنكور بغيظ. نحن لا نعرض أبناءنا أبداً للاستجداء، وليس لنا ضحايا في اليابان.. اللهم إلا الذين يخالفون القانون.

- إنه مجرد مثال.. هكذا أجاب فرنكور، ثم واصل حديثه بعد ذلك وقال: لو ذهبت إلى تلك المرأة نفسها وقلت لها: إن أخاها يموت من الشقاء، وإنه جائع ويقاسي من شدة البرد.. أي يعاني ويشتكي ويطلب المساعدة منها، فستجيبك: إنه «بخيل وزنديق وسوف يموت وهو مصرّ على الذنوب».

هذه المرأة المحسنة، تحمّل نفسها مهمة مواساة المرضى. فقد كانت في عيادة مرضى بمستشفى، وعندما مرت أمام أسرّة أناس منسيين، سألت كل واحدٍ منهم عن سبب معاناته.

كما سألت إحدى هؤلاء البائسات: «هل لك طفل؟ فأجابت نعم، وحينما سألتها عن أبيه، وكان جوابها أنه تركها واختفى، قالت لها:

هذه عاقبة السلوك السيّئ! الله وحده هو الذي يعاقبك» ثم واصلت زيارتها للمرضى!

الكثير من النساء هنا يستطعن الجمع بين حياة المتعة، وممارسة الواجبات الدينية، وهن يعتقدن أن تلك الممارسات تبرئهن ولكنها لا تجعلهن يتغيرن. في كل يوم يقعن في الأخطاء نفسها، ونظراً إلى أنهن لا يعبدن الله إلا بطرف اللسان، فإن قلوبهن لا تتطهر.

في هذه اللحظة مرّت بنا فتاة شابة بيضاء، ووردية الجفنين.. كانت جميلة إلى درجة تأسر القلوب، وكأنها حورية ظهرت في حلم أفيوني.. كانت نظرتها الخجولة، وهيئتها البريئة متباينتين مع مظهرها، فقد كانت تبدي جمالها ولكن بخجل. عندما تعزف الجوقة الموسيقى، تسارع الفتاة الشابة إلى الارتماء في حضن خيالي.. تابعت حركاتها بنوع من التبرم، وعندما اقتربت مني، وهي مكوّرة وناعمة، لم أستطع التحكّم في ما يشبه النشوة.. فقد كانت كتفاها الجذابتان ساحرتين بل قاهرتين. يا إلهي لقد أضعت عقلي.. لم تصمد نفسي اللوامة أمام ضعفي، وهذا ما أقرّ به على استحياء. لقد أُعجبت بها، ونسيت كبر سنّي.. نسيت موقعي الاجتماعي، ووقاري.. نسيت الفضيلة.. لقد أُعجبت بها كثيراً فبقيت أنتظر خروجها مرة أخرى حتى أُمعن النظر والتأمل في سحرها وجمالها.

أمّا فرنكور، فقد كان يبتسم ابتسامة خفيفة، ولكنها كافية لتجعلني أستوعب الدرس.. احمرّ وجهي، خاصة وأن أخطاراً أخرى أكثر

شهوانية انصبّت على الفتاة الشابة العفيفة وغير الواعية بالنتائج التي حصلت، لأنها فعلاً تجهل الأمر.

– هكذا يكون البحث عن زوج.. علّق فرنكور. فالأم سواء كان ذلك بإهمال مقصود، أو نتيجة سهو منها حاكت صديرية الفتاة العذراء واسعة مع لحاف قصير يغطي الكتف، ما مكّن الرجال من التمعن بيسر في أسرار جمال الفتاة الشابة. إن الشباب وحتى الشيوخ من الممكن أن يتأججوا، لدى رؤيتهم هذا الصدر العذب لابنة الثامنة عشرة، فهذا يجعلهم جميعاً ساهرين طيلة الليل الساكن، حتى إذا تمكّن الحبّ منهم أتوا إلى أم الفتاة ليخطبوا ودّ الجميلة وبإلحاح كبير.

– قلت لفرنكور: ولكن أيها الفرنسي، الذي تملّكه الشيطان، هناك الحياء، ثم الحياء، ثم الحياء.

– آه، الحياء! الحياء! إنّنا هنا نفعل بالحياء ما تفعلونه أنتم بنسائكم ذوات الدلال الكبير.. إنّنا نحبسه في البيت!

VIII – رسالة طسوتسيما إلى «كوان فو»
وجواب «كوان فو»

أوروبـــا

بعد يومين من وصولي، تسلمت رسالة من بيدو.. كانت مرسلة من طرف صديقي الفاضل الدكتور طسوتسيما، وقد احتوت على هذه العبارات:

«العالم البارع صاحب المقام المحترم»

إذا كان سوء طالعك قد منعك من أن تنال أعلى مكانٍ يحجزه لك كوتموتسي في عليائه (أي إذا لم تكن قدمت) فيجب أن تكون في هذه الأوقات في إحدى عواصم الغرب! أبعث لك بهذه الرسالة وأنت في باريس، حيث أكون متأكّداً من وصولها إليك، لأنه لا يوجد كثير من الناس في باريس... الله يعلم إذا ما كنت سأتصرف على نحو ما كتبت لك في رسالتي، ولكنك كنت أنت الخطاف وأنا النملة. أنت تنشر أجنحتك فتطير بينما أبقى أنا موثوقاً تبعاً لإرادة الأقدار.. أهتم في هذه اللحظة بإعداد كتابٍ كبيرٍ حول السياسة، وطبائع الأمم الأوروبية.. يحتوي عملي على كمّ هائل من المعلومات، ولكنني أحتاج إلى تتويج عملي بلبنات مختارة من عندك.

«واسمح لي يا صديقي المشهور بأن أطرح عليك بعض الأسئلة: حاول ألا تخفي شيئاً، ولتكن كلمتك لي صريحة وعالية مثل الصنجة التي يضربها الراهب أوراتسي–كو.

أحب أن أعرف الميول الحالية للأوروبيين. فقد سعيت إلى إدراك كنه هذا الموضوع، ولكنني لم أفهم شيئاً... هل لهم معتقد ديني، فني أو أدبي؟

ارسم لي بالخطوط العريضة، تاريخ كل هؤلاء المتخلفين. هل هم بحق أكثر تحضّراً وأعظم منا؟ أجبني بكل صراحة، فأنت تعرف أن ذاكرتي وباعتباري كاتباً لا تحتفظ إلا بما هو مفيد لوطننا... أليس ذلك سلوك المواطن الصالح؟ ألا ينبغي لنا أن نُسجّل كل عيوب ونقائص الشعوب الأخرى، حتى نصنع الحزمة القبيحة ونقدمها لوطننا قائلين:

«أنت أكبر بلد في العالم.. كل الشعوب الأخرى تنظر إليك بالاحترام وتنحني أمام مجدك!»

هذا أيها الدكتور صاحب المقام المحترم جدّاً، ما أرغب في نقله إلى موطني بفضل معلوماتك الدقيقة.. ثم تواصلت الأسئلة: من أهم شعب في أوروبا؟ هل هو شعب الأمة الإنجليزية الذي يجوب الكون بلا توقف كالبطرسي الجائع والسريع والذي ينقر هنا وهناك: ههنا يجد الإنجليز موانئ، وبعيداً هناك يجدون قليلاً من الأراضي الخصبة من دون أن يكلّوا؟

أم هل هو الشعب الهولندي الذي يصرّ على مواصلة شراء موادّنا الغذائية، رغم الإهانات التي ألحقناها به؟ أم هل هما الشعبان الإسباني والبرتغالي اللذان كانا قديماً سيدين لنصف العالم؟ أم هل هو الشعب

الفرنسي المحارب والشجاع الذي يظهر بطولته حول العالم، ولكنه لا يحتفظ بأحسن المستعمرات؟

تحدّث يا «كوان فو»!

والآن لندخل في نطاق ضيّق: يحدثونني عن الخصومات التي لا تنتهي بين فرنسا وإنجلترا اللتين تتعانقان دبلوماسياً مرتين أو ثلاث مرات في السنة، ثم تشوّه إحداهما الأخرى وتهينها مثلماندشو والصين!

هل من العدل أن يسمح الإنجليز لأنفسهم بغبطة يشوبها الشر بإهانة فرنسا، التي حاربت وانتصرت نيابة عنهم في الكريمي وفي إمبراطورية الصين؟ هل يعتقد الإنجليز أن نكران الجميل ينمّ عن استقلال سياسي؟

كيف تنظر يا صديقي الشهير إلى كل هذه الظواهر؟

إذا وجدت ريشتك شيئاً آخر تكتبه لي فلتنطلق، فكلي آذان صاغية. وأختم وأنا أخلع حذاء ساقي اليُمنى.. صديقك الذي لن يفارقك:

طسوتسيما

في ذات المساء، أخرجت ريشتي، وبلّلت حبري، وبدأت أكتب ردّي إلى طسوتسيما وكلّي عزم، وهذا نص ما كتبت:

«تقبّل تقديري لوطنيتك، وشكري وعرفاني بالفضل الذي أسبغته عليّ، حيث إن التواصل مع مؤرخ ياباني من ذوي الرفعة مثلك،

ومدّه ببعض المواد يعنيان الذكر الخالد لي.

ومن دون إطالة أصل إلى الوقائع:

تسألني عن نزعات الأوروبيين، وإذا ما أردت أن أجيبك على الفور فسأقول بكل وضوح: إنني لم أفهم شيئاً من ذلك! فأنا أرى أناساً يعلنون مقسمين أن لا سيّد لهم ثم لا يلبثون أن يخضعوا لأسياد كُثر!

أشاهد هناك، ملوكاً يتصافحون بحرارة كبيرة، ثم يظهر بعضهم، الكره للآخرين، وأرى شعوباً كريمة الأصل، ولكنها لا تحترم ذلك إلا نادراً، فهم يفضلون العيوب التي تجلب المنافع على القيم التي لا تفيدهم مادياً، كما أنني ألاحظ أشياء أخرى سأتجاوزها.

الفرنسيون يحبون الفن والإنجليز يحبون التجارة، بينما يحب الألمان العلوم، ويحب الإيطاليون المؤامرات. في فرنسا نصنع فنّاً من كل شيء حتى من السخرية من الناس. وفي إنجلترا كل شيء يباع ويشترى، سواء أكان ذلك في الدين أم السياسة . في ألمانيا، هناك العلم في كل شيء وحول كل شيء. أمّا في إيطاليا فإن التآمر يكون على كل شيء حتى على الله!

هذا ما أردت تأكيده...

أما عن سؤالك حول الأكثر تحضّراً من الغربيين والشرقيين، فإنني متحيّر في الإجابة وأترك لك الحكم في هذا الموضوع.

إذا كانت الحضارة تعني استغلال الاكتشافات العلمية، واختراع

الأسلحة الفتاكة، فيجب أن تقبل عزيزي طسوتسيما أن الشعب البلجيكي الصغير سوف يتفوق علينا إذا أراد ذلك. ولما كانت تلك حقيقة مهينة، فقد يكون من المحبّذ إذا أردت ذلك أن يكون لباسك مزيّناً بتنّين أصفر في يوم من الأيام، فإنني لا أملك أن أضيف إليك شيئاً آخر.

أصل الآن إلى أمورٍ أخرى.. كن متوازناً ومتمعّناً: الأوروبيون يعطون الصولجان للمرأة، ولكنهم يحكمون عليها بعدم الأهلية لتسيير إقليم صغير.. إنهم يجلسون على موائد الطعام بغية التحدث مع بعضهم، كما أنهم يتناولون الحلويات بعد الأكل.

النساء يخرجن في كل الأوقات، ويمشين مثل أحسن جنودنا المشائين.. تراهنّ يرقصن مع الأجانب، ويُسلّمن بألفة في المتنزهات والأماكن العامة. أما الرجال فإنهم يرهقون أنفسهم بنزع قبعاتهم كلما تلاقوا مع بعضهم. يسأل الأوروبيون عن أحوال بعضهم بطرح السؤال التالي: كيف تسير أمورك؟ وبعضهم، كالهولنديين مثلاً يكونون أكثر حكمة ويسألون عن الطعام الذي تناولوه: هل أكلت جيّداً؟ بعض الشعوب يشبهون الفرنسيين كثيراً في طريقة عيشهم المرحة، وهي شعوب وضعتها روسيا تحت سيطرتها ولها في أقصى غرب أوروبا عدد كبير من الجاليات التي تبدو وكأنها فرحة بألاّ يكون لها وطن. هذه الجاليات تلاقي الأجانب في الطريق العام بلطفٍ كبير. أحد أعضائها قال لي يوماً، ما ترجمته: أسجد عند قدميك.. انتظرت

أن ينحني، ولكنه لم يفعل.. يقترب هذا الشخص المتخلف من شخص آخر فيقول له الكلام نفسه من دون أن يمر إلى التطبيق. وخلاصة القول: سواء في هذا المضمار أم في غيره فإن أعضاء هذه الجاليات نادراً ما يلتزمون بما يقولونه. ومن ذلك أيضاً أن الإسبانيين جرياً على عادة أحد كبارهم، يتظاهرون بالحكمة، بينما يكون للفرنسيين الذين لا يتظاهرون بذلك، نصيب منها في الواقع. عندما يقدم الإسبان أنفسهم للنساء، فإنهم يتلفظون بعبارة: «أقبل قدميك» وهي طريقة حمقاء فيها مبالغة.. خسيسة وفاسدة. وقد تفهم هذه الحركة لو كانت أقدام الأوروبيات تشبه أقدام نساء كبار الموظفين عندنا أو لو كانت صغيرة، وتشبه أقدام صغار القطط، ولكنها أكثر عرضاً، طويلة، نحيفة، مبسوطة ومتأثرة بكل أنواع الإجهاد. لا أستطيع أن أحصي سلسلة العادات الخرقاء للأوروبيين، فعندما يكتبون إلى رجلٍ ذي سلوك شيطاني، فإنهم يعاملونه في العادة معاملة سيئة ويوبخونه بقسوة، ثم لا يلبثون أن يعلنوا له أنهم خدمه المطيعون.

إنهم ينسبون لأنفسهم يومياً أنهم الخدم المتواضعون لحشودٍ من الناس، لم يسبق لهم أن عرفوهم ولا يركزون على ما يقولون.

ففي حضرة الأوروبيين - وهنا أعيد ما كنت قلته سابقاً - من الأفضل أن يكوي المرء لسانه، ويحرق شفتيه على أن يبحث عن فهم طريقتهم، في التصرف في الحياة!

آهٍ يا عزيزي طسوتسيما، أيّ تخلّف في هذه الحضارة المزعومة!

كم هي عديدة تلك الحماقات التي ترتكبها شعوب تُعتبر حكيمة..
تريد مني رسم لوحة لسياسة أوروبا، ولكنك تجهل أن كل شيء مترابط في هذه المادة الحارقة.

يبدو لي أنك لا تعرف أنني عندما أتناول سياسة الغرب الأقصى، فكأنني ألامس، بشرة سايغوني، حيث تصبح السماء متجهّمة، كما لو أننا في حال إعصار مدمّر. ومع ذلك فسأحاول أن أجمّل الأمر في عجالة، معتقداً أن القادر عوضاً عن أن يبعث لي بالأعاصير سيتقبل أن يتحدث بصراحة، ويعترف بأن المواطن الذي يريد تحطيمه لا يمشي بكبرياء، ولكنه ينبش في الظل في أسفل الصرح.

ومن ناحية أخرى، ألا يقال إن الحقيقة توجد لدى السادة والفقراء، لأن السادة فوق المدح الذي لا يطال الفقراء؟ أنا أعي ما أقول وأنت تسمعني، أما القادر فقد فهمني.. إذاً لنمُر.

«هل تذكر سيكوكو، ذلك المثقف المهووس صاحب الأطوار الغريبة؟ كان رجلاً قصير القامة، وكانت هيئته تبعث على نوع غريب من السخرية.. كان يحني رأسه على كتفه اليسرى، ويمشي بخطى صغيرة ولكن بسرعة كبيرة.. ينفذ نظره إلى أعماقك ثم ينطلق في قهقهة. كانت عيناه تلمعان كأنهما نجمان، بينما تكشّر شفتاه عند كل جملة يتفوه بها مخاطبوه، حتى قيل: إنه يسخر من كل شيء حتى من نفسه! وباختصار، لو لم تكن له مجموعته الغريبة من الحيوانات، لتركنا الدكتور العزيز مع هجاءاته وردوده السريعة والقاسية، ولكن

الحيوانات أعانت الرجل على أن يتجاوز هذه الأمور.

لتعد إلى ذكرياتك: ففي الأقفاص الإثني عشر التي تزين غرفة عمله، توجد عدة حيوانات جيء بها من بعيد ومعظمها من أوروبا: هناك ترى قطاً، وهنا ترى كلباً من النوع الذي يصطاد الجرذان.. هنا قرد أفريقي مقطب الجبين وعابس، وأبعد من ذلك بكثير هناك ديك رومي معه صقر للصغار. هناك أيضاً اثنتا عشرة فأرة متغذية بطريقة حسنة، وخمس من العظاءات الخضر ذات القامة التي تحاكي قامة التماسيح، وأخيراً نجد دبّاً.

كل هذه الحيوانات كانت تحدث صياحاً، وقوقأة وهي تهيج وتفترس. فالقط وهو من سلالة بريطانية، يموء بطريقة تكاد تفلق رؤوس الأجوار، فهو يكشف عن مخالبه، يشيح بوجهه، يتمطط، ويصقل شاربه. يستولي على ألذّ قطع اللحم، وحالما يشبع يرسل علامات دالة على نوع جديد من الشكاوى. أما الكلب وهو من فصيل فرنسي فهو منكفئ في مشكاته وموثوق إلى سلسلته.. كان يحاول الانطلاق إلى الأمام.. يهيج وينبح، ورغم أنه العدو اللدود للقط، فقد كان من الوداعة، مفضلاً تركه في سلام على أن يأدبه في أحد الأيام تأديباً عنيفاً!

مثل صبي لطيفٍ، ولكنه صاحب صخبٍ متوقدٍ وعنفوان. كان الكلب يتطلع إلى الانعتاق، ويقطع اللحم بحنقٍ، كما كان يبعث نوعاً من الشخير، بينما كان القرد الذي ولد من خلال مصادفة عجيبة في

بعض نواحي إيطاليا، غضوباً ومضايقاً. فقد كان يتلوى على نفسه، لأنه لا يستطيع أن يقرص الآخرين، وكان يعض على أصابعه ويحك صدره إلى حد الإدماء.

وقريباً من ذلك، يبدو الديك الرومي الذي تم جلبه على ما أعتقد من ألمانيا. فهو ينتفخ ويرسل صيحاتٍ محزنة، عندما يحصل هيجان داخل الرواق، فيتبعه صياح صغاره مهددين بالهروب. كان ذلك الحيوان يعاني من عذابٍ أليم. أمّا الجرذان فإنها كعادتها شغوفة بكل عملٍ حقير.. إنها تنتظر السبات داخل معرض الوحوش لتفعل فعلتها، وأما العظاءات فإنها تنتشر في البيت بخطى مترددة وخجولة. وأخيراً.. فإننا نجد من بين ضيوف المهووس العجوز دباً صغيراً، ذا شعرٍ ناعم ورقبة تمّ جردها بقلادة.

هذا الرجل ذو الأطوار الغريبة كان ينظر متفلسفاً إلى هذه الرفقة، وكأن نظرته تريد أن تقول: «أصدقائي الأعزاء، في يوم من الأيام سأقوم بخطفكم» قد تكون في هذا التأويل مبالغة، ولكن تذكّر عزيزي طسوتسيما، لقد كنا في هذا الوضع نفسه جميعاً.. كان ذلك هو المشهد الذي يقدمه في الأوقات العادية، رواق العالم سيكوكو وقد تقول لي، متسائلاً: وما العلاقة بين أوروبا ومعرض الوحوش هذا؟ ولكن على مهلك اتبعني في حديثي وانتظر البقية.

قد يحدث في بعض الأحيان للدكتور الأصيل نوع من النزوة الشيطانية، فيطلق جميع حيواناته التي تغدو في لهو ومرح مشوّشين.

وكان يتمنّى عليّ أن أحضر يوماً ما، أحد هذه المشاهد الجهنّمية، فحشرت نفسي في سلة كبيرة كانت معلقة في السقف في مأمن من اللطمات العنيفة، وكان بإمكاني مشاهدة كل شيء.

فُتحت الأبواب، وبدأت المصارعة.. كان القرد أول ما انطلق من مخبئه، وبضربة منه بالقدم على الأرض، تبعتها تحريكة للذيل ثم حركة أسنان، تمّ إيقاظ جميع ما في المنملة. أمّا القط فكان يتكور في ركن واقفاً على أطراف مخالبه، ينتظر انطلاق الأحداث، في حين كان الكلب المتسيّد يلحق بصديقه القرد بوساطة ثلاث قفزات، ويسرع بخفة ليلتحق بالمجموعة المحيطة بالديك الرومي الذي انصاع لحالة الهيجان فصمم على مواجهة العدوّ، ولكنّه عندما نال ضربتي عقافة، تراجع مرعوباً.. تاركاً ما بين خمسة إلى ستة من صغاره في الميدان. يأتي الآن دور القط.. هذا الحيوان الخبيث ذي المخالب التي لا ترحم. فبقي القرد جانباً خوفاً منه، بينما تقدم الكلب بتهوّر في اتّجاهه، ونظرا لبعضهما بشزر.. قوّم الواحد منهما الآخر.. ذكّرا بزمجرة كبيرة مطاعنهما القديمة، وكشرا عن مخالبهما ثم ارتمى الواحد منهما على الآخر. وهكذا، رأينا آثاراً لثلمين داميين على رأس الكلب، وعضّة عميقة في رجل القط المبجّل!

«هذه فوضى حسنة، قال الدكتور ضاحكاً باستهزاء.. يومٌ طيب لكلبي. إن جراح هذه القطط الملعونة قاتلة، ولكن علينا انتظار النهاية. فالكلب فعلاً لم ينه المعركة، فقد اقترب من الدب، وأيقظه فوقع هذا

الأخير فجأة على القط، ووجه ضربة برجله إلى الكلب المتسيّد الذي رد بنهشة عنيفة، وقد بدا أكثر جرأةً، وأكثر عنفاً من ذي قبل. إلى ذلك رضي الدب بانتصاره على القط، فعاد بخطى وئيدة إلى مخبئه،

نظف القرد نفسه، حك جلده على دربزين، ثم تمدد على الأرض ونام.. الجرذان والعظاءات خرجت من مخبئها، رفعت رؤوسها، وأرهفت السمع ثم انسحبت عندما سمعت قليلاً من الضجيج.. ها هي تعود متقدمة بجرأة أكبر، تجري في كل اتجاه، تلحس الدماء المسكوبة، تقوم بخطفات، تقطع الضحايا وتنقل ما سقط في المعركة إلى مخبئها.

«والآن أيها الطسوتسيمي العالم، هل تريد أن تعرف خلاصة كل هذا؟ إن أوروبا تشبه بنوع من الغرابة معرض الوحوش الذي وصفناه».

IX – تاريخ فرنسا

«من السياسة الحيّة سأعرّج على سرد التاريخ، الذي هو السياسة عندما تتعلق بالأموات! هذه هي الخطوط العريضة لحكاية الأحداث التي جعلت من الفرنسيين واحداً من شعوب العالم. فمنذ ألف عامٍ أو أكثر، هاجرت عشيرة من المتوحشين، كانت قد ولدت في النواحي الشمالية من جرمانيا، إلى فرنسا فقتلت وسلبت ونهبت.. كان ذلك نوعاً من العدل. لقد أعلنت عن نفسها بصفتها شعباً مجدّداً.

إزاء ذلك الحدث، كان رد فعل السكان الأصليين للبلد، وضحايا هذه الكارثة هو أنهم أخذاً للعبرة من الزلازل الأرضية، ومن الطاعون والتوحش، فإنهم سوف لا يحاربون وسيخضعون. لقد تخلّوا عن ضغائنهم من أجل السلم، بل كانوا يسعون أمام الأجانب الذين نهبوا قراهم، وحرقوا غاباتهم، وحطموا آلهتهم، وأخذوا نساءهم. كان أهل البلد الأصليين يقدمون بناتهم للوافدين الجدد، الذين كانوا يردون بأنهم لا يعرفون ما الذي سيفعلونه بما هو معروض عليهم، فيحجب الآباء وجوههم، ولحاهم ،ويقضون بعض الدقائق وهم يعانون من الإهانة خجلاً من عائلاتهم.

«أحد قدماء القادة في فرنسا كان يدعى كلوفيس – هذا السيد المحارب وعلى عادة كل أبطال العالم كان له عقل محتدم – وكان أنانياً حتى النخاع.. ومع ذلك وفي نظر التاريخ فهو شخص محترم جدّاً.

ذلك هو قانون التاريخ.. في العادة إن الحرب تكون في خدمة الدين إلا أن هذا الرجل الشيطاني، طبّق الفكرة الغريبة التي تجعل الدين في خدمة الحرب. فلما كان في أحد الأيام محاطاً بعشرين رجلاً من الأقوياء، وكانوا ممسكين بحرابهم، توجّه إلى آلهته موبّخاً، فقال:

«أيّتها الآلهة، إنّك لا تساوين شيئاً، ها أنذا في وضعية محزنة.. ستخجلين من ذلك، ولكنني أعلن أنني قد تنكرت لك، وبعد الآن لن يكون لي إلا إله واحد.. يا إلهي العظيم، الذي أعبده للمرة الأولى في حياتي، أعنّي لأنتصر على أعدائي، ولتجعل بمشيئتك من أبدانهم فريسة للعقبان.. اكشف لي يا إلهي عن رضاك عن عبادتي لك».

تمّت الاستجابة للدعاء، ومنذ ذلك الحين دأب الفرنسيون وباقي الأوروبيين على التوسّل لإلههم الواحد، وذلك عندما يطلبون الانتصار بمجدٍ على أعدائهم. الدول والأبناء عندما يكبرون يصابون جميعاً بمرض القونة الصفراء، وهذا شيء طبيعي. وفي الواقع إن هذا البلد لا يحتاج رجالاً يضربون بالخنجر، ولا تنقصه القدرة على تسميم الناس، أو التسبب في حالات من الجبن كبرت درجتها أو صغرت. ففي ظل الملوك الأوائل كانت البلاد في حالة حرب مفتوحة مع الأسياد الكبار المجاورين لها، وكان هناك تقاتل وتمزّق بأنكى وسيلة. شاركت في هذا القتال ملكتان أبليتا بلاء الرجال.. وجدت بقية من صغار النبلاء تفضل النوم، والمباهج إلى درجة أن مجرد ذكر كلمة كتيبة، يجعلهم يرتجفون أمام ذرّيتهم. آخر هؤلاء الملوك كان

لهم خدم على درجة عالية من الذكاء، تجعلهم يستعيدون ما قاله الناس من عامة الشعب في هذه المملكة الوهمية التي تحدث عنها الراوي السعيد مازولا بيكوتو «للملوك أذرع مثل تلك التي لنا، إلاّ أنّهم يستعملونها لمداعبة لحاهم الناعمة، وشعرهم الطويل، بينما نحن – ويا للأسف– نستعملها لحرث الأرض الصلبة، أو القيام بأشغال ترهق أبداننا. ثمّ إنّهم قليلو العلم، فهم لا يعرفون شيئاً عن النجوم التي ترشد الملاحة أو الاكتشافات أو الآداب والفن اللذين يحببانا بالحياة ويمثلان مصدر فخر للشعوب.

فتجارب الحياة تعجل في شيخوختنا منذ عهد بعيد، وتحشر أدمغتنا بمختلف العلوم.. نصل إلى معرفة أسرار الأرض والسماء، ومع ذلك فنحن نُطالَبُ بالركوع لهؤلاء السادة الجهلة! لنشق عصا الطاعة هذه المضحكة والحمقاء. فللعقل حقوقه، إذ لا شرف إلا للذكاء! لكن ما هو ثابت هو أن آخر هؤلاء الملوك «وقع» قص شعورهم (وهو عمل مقيت في الصين وفي فرنسا القديمة) وسجنهم في دير، ثم فرض عليهم بسخرية أن يُصلّوا للجميع، وخاصة للذين تسببوا في دخولهم الدير. سوف نستنتج وبقوة من كل ذلك أن الفرنسيين انحلّوا بصفة غريبة ومبكّرا، حيث إن الجلوس على عرش كان أفضل لديهم من عبادة الله الأبدية داخل صومعة فيها الهدوء المطلق. «كان أحد أبناء رؤساء القصور هؤلاء (وهذا اسم يطلق على هؤلاء الطموحين) أكبر وأقوى وأشجع محارب في عصره.. هذا الرجل الذي لم يكن يخشى

الحرب أو التعلم أو النساء أو حتى رجال الدين هو الآن نوعاً ما معبود الجماهير، لذلك فقد جعلوا له حجرة في معبد كاميس - كان نشاط هذا الرجل الشهير مشتملاً على كل شيء. فقد كان يسيل دماء كثيرة ليدخل الناس في الحياة المدنية - وكان ذلك من الأعراف، فقد بنى مدرسة في قصره وهو أمر لم تجر به العادة، ولكن من يهتم؟ كما كان فوق الجميع، وبطبيعة الحال فوق الأفكار المسبقة. وهناك ما يؤكد أنه كان يحضّر بنفسه لحصص الدروس، كما كان يستشاط غضباً عندما يتقدم أبناء الفقراء على أبناء كبار القوم!

كان يقول: إن الدولة ليست مدينة إلا لمن يستحقون ذلك، ويهدد قائلاً: إذا لم تتعلموا الكتابة والقراءة.. أيها الأشقياء الصغار فسأجعل منكم خدماً، وقليلي أدب».

لقد كان ذلك كلاماً وجيهاً من دون أدنى شكّ، ولو عمل كل الملوك على تطبيق هذه النظرية لكان لدينا عدد لا يحصى من هؤلاء الصغار، الذين أصبحوا كباراً في شتى الميادين، حسب تعبير الدكتور ماجي لاباكي.

وخلاصة القول: إن هذا الداعي الشهير إلى المعرفة كان يقدر قيمتها، لأنه كان يعيش في جهلٍ تام. فقد كان يقول من حين لآخر وهو يرسم إشارة الصليب: اللعنة على كل الشياطين.. أنا قادر على قتل إنسان بخنجر أو بسيف دقيق أو عادي. كما أستطيع عندما أقطّب وجهي أن أجعل كل رجال مملكتي، التي يمكن أن تهتز لها كل

أوروبا، يرتعدون، ومع ذلك، لن يكون بمقدوري أن أكتب كلمتين أو أن أتحدث باللاتينية مثل ما يفعل كاهن.

أمّا خلفاء هذا الأمير، فإنهم لم يبرزوا إلا بمساوئهم: فبعضهم يبالغ في إظهار الوداعة وبعضهم الآخر يبالغ في القساوة. ويمثل النوع الأول الأغبياء منهم بينما يتكون النوع الثاني من المفسدين. وباختصار.. فقد حُكم على العائلة بعدم الجدوى.

أحد السادة الأذكياء جدّاً واسمه كاباتٍ، انقلب على هذه العائلة وحلّ محلّها. أنا لا أذكر لك إلا وقائع ذات أهمية بالغة، فلم أحدثك مثلاً عن عملية اجتياح جاءت من الشمال، وكانت تشبه اجتياح أينوس وكادت تثوّر البلاد.

عندما قدمت إلى هنا، كان قد استولى على الناس قلق كبير. أحد مدّعي النبوة قال: «سوف تستمرّ الحياة إلى أكثر من ألف سنة». وهكذا اقتنع الأوروبيون الأصليون بأن الأرض ستختفي من مجموعة الكواكب، فأصبح كل واحدٍ يبكي ويتكدّر ويضرب على صدره، ناظراً إلى السماء، لعل أحد المذنبات يضرب بمؤخرته كوكبنا فيلقي به في هاوية لا قاع لها!

ولتسجل عندك عزيزي الدكتور، وفي هذا الوقت بالذات أن الصين واليابان وكل الجهات الأخرى في العالم، تعيش في طمأنينة كاملة، وأن هذه الشعوب الغربية تفترض من دون جهد خاص أن أسرار الألوهية اختصت بها هي من دون الشعوب الأخرى.

إن هذا التفكير غير السويّ، تولد عنه الكسل. وكما هي العادة دائماً فإن الكسل يولّد الفشل والسرقة والابتزاز والمخالفات بكل أنواعها. حقاً، يقول الحكماء: يجب تطهير أوروبا التي أصبحت كالمريض بدرجة تفوق الحدود! كلّ هؤلاء الناس من السوقة والدهماء الذين يعيشون حالة من الفراغ، وهم لا يستقرون على شيء، ويضمرون الرداءة، فالماء الراكد يفسد.. لنحسم الأمر بقوّة، ولنرسل إلى الجحيم كل هذه التجمعات غير المفيدة. وهذا ما تم فعلاً، فقد عبأ أحد الخطباء الجسورين، المعوزين والقساوسة وقطاع الطرق إلا أن ثلاثة أرباع هذا الجيش اضمحلّوا في الطريق ولم يسمع أحد عنهم شيئاً!

وفي الظرف نفسه، كان هناك محارب مدرع بالحديد، امتطى جواد الحفلات واضعاً في يده قاذفة، وعلى صدره الصليب، وكان قلبه عامراً بحب الله ثم انطلق على رأس بضعة آلاف من الرجال الشجعان. لقد كان همه ألاّ يلعن أحد في المستقبل، وعلى رمس أحد أنبيائهم، عشرون حاجاً مسيحياً.

وقد تبعه آخرون وعادت الأمور إلى نصابها. انقلب الغرب على الشرق وكان أن ضحّى ملايين الناس بأنفسهم في سبيل هذا العمل الكبير.

بعد سنينَ عديدة، بدأ ملوك صينيون بتأمل الأحداث الماضية، مفكرين في كل ما حصل وقائلين: هذا في الحقيقة ما يزيّن تاريخنا بالمزايا، ولكن الجميع لا يحفل بكل هذا. لقد أثرت هذه البعثات

النبيلة سلبا على خزائننا إلى درجة أنها لم تعد قادرة على استعادة توازنها، فلنحاول رغم كل ذلك تحقيق ذلك التوازن.. لنعصر المُزارع، ولنفرض الضرائب على بيته وشباكه وحقله ومحراثه وملحه وخبزه!».

لا أملك يا دكتور الشجاعة أو الوقت لاستدراجك إلى متابعة آلاف التقلبات لحرب دامت 100 سنة، وشنتها فرنسا ضد بريطانيا. ،إذ إنه خلال قرنٍ من الزمان، توالت المعارك والجرائم وخيّم الخداع على القطر الشقي.

كانت هناك امرأة لا تحسن القراءة أو الكتابة.. تعيش في عالم الأحلام، ولا تعرف الرجال أو الأشياء.. كان ذكاؤها ضعيفاً للغاية، ولكن همّها كلّه كان منصباً على الوطن. انطلقت هذه المرأة من بلدتها، فأشاعت حماسة خارقة لدى الناس.. كان دافعها ثقتها في قضيتها أكثر من مهارة قيادتها، ثم هاجمت الإنجليز فروّعتهم وطاردتهم وتحدّتهم، ولكنها انتهت إلى الموت شقية، بعد أن تم حرقها وهي حيّة، عندما أصبح حبها المتحمس للوطن غير مجد.

هذه القصة، أعادت إلى ذاكرتي، مغامرات تواهونق الشهير، المنتمي إلى إمبراطورية فيتنام، والحياة الاستثنائية للصينية مو-لان. هذه الحكايات الثلاث اللافتة، أحسن مثال للجميع، فهو يعيد إلى الأذهان ما ثبت سابقاً من أن المرأة قادرة على تجاوز نقائصها بقلبها الكبير وتفانيها اللامحدود!

«فالعمل الذي بدأته امرأة ذات روح تواقة، واصله رجل برع في فنّ التستّر. إن الملك الذي لا تعوزه الحيلة أصبح لا يخاف العدوّ الخارجي، لأنه اقتنع بأن العدو المخيف يقبع في الداخل، فكان أن صرع السادة مثلما يقطع الحطاب الأشجار! وأصبحت فرنسا المتحررة، بعد أن تصالحت مع نفسها لا تطمح إلاّ إلى الازدهار.

– سكنت الحرب بين إنجلترا وفرنسا، وأصبحت إيطاليا هدف الأطماع. لقد خامرت فكرة مزعجة عقل ملك، فانتعل الجزمة الملعونة.. كان يفترض أن تناسب تلك الجزمة رجله، ولكنها تسببت له بجروح قاسية. اعتقد خلَفه أن الشرف يفرض عليه انتعال هذه الجزمة، فكانت النتيجة أن رصَ عقبه وقرص أصابعه.. هذا لا يهم فالمدّاس كان يبدو مبرنقاً، ولائقاً إلى درجة أن الكثير من كبار القوم أرادوا انتعاله .. هل كان ضيّقاً جدّاً أو واسعاً بما يكفي؟ أجهل ذلك. فكل ما أعرفه أنهم لم ينتعلوه لمدة طويلة.. بل إنه لم يقع استعماله بعد ذلك.

في أحد الأيام قال نحو 100 فرنسي من ذوي الفكر المتّقد والقلق: «كانت ديانتنا في يومٍ من الأيام، حسنة، ولكنها اليوم شاخت.. علينا تصفيتها والاعتراض على تعاليمها.. سوف ينتج عن هذا السلوك أننا سنضطهد، وذلك ما سيجلب لنا شهرة وسنصبح رجالاً ذوي صيت كبير، لذلك فلندعُ إلى وضع نهاية للأديرة، والاعترافات والصلوات في الكنائس، ويا أيّها القديسون، تزوّجوا.. لينته عهد

الأحبار واللباس الأحمر وعهد الامتيازات.

وهكذا إذاً ظهر مذهب جديد منافس، ليقف وجهاً لوجه مع الديانة المسيحية. لقد أحزن هذا الأمر، أحد ملوك فرنسا كما أحزن أكثر إحدى الملكات.. كانا يكرران بصوت خافت: إن موقفنا هذا ليس ناتجاً من قلقنا الكبير على ديانة آبائنا، ولكن لأننا نعتقد أن من لم يكن معنا فهو بالتأكيد ضدّنا، ذلك أن العقبة الجديدة تستدعي نظاماً جديداً! فهؤلاء المنشقون هم في الغالب مشاكسون سياسيون، لا يطمحون إلاّ للانقلاب علينا. لنكن مسيحيين بحق فنسحقهم. هذا خطأ فادح، فكل قطرة دم تسال يولد منها خصم معلن. لقد صُبغت الملكة بالدم، ورغم أنها تحاول أن تزيل آثار الدماء، إلاّ أن أصابعها لا تزال تحمل آثار لا تمحى، ورداءها لايزال ملطخاً بالوحل، ومحمّلاً بالمزقة، مع أنها تحمله بفخر على وركها كأنه رداء من الأرجوان والذهب! تجرّ المرأة الشجاعة الأحذية البالية، والمرقعة فتلقي بها في الجوّ.. ها هي الآن كلها أناقة.. تشع عن بعد وكأنها تستشعر مجيء الطاعون عن قرب.. ها هم الشعراء، الكتاب، الفنانون، الفلاسفة، المحاربون، البحارة، السفراء والأمراء لا يقسمون إلا بعينيها معلنين العبودية لامرأة منتهية، ولكنها في عنفوان الشباب.

«ليُعزَف الناي، ولتنفخ الأبواق.. لم نعرف أجمل من هذه الأوقات. فالجنون قد يجعل الناس سعداء، وأنت تعرف رغم هذا يا طسوتسيما أن النزوة يمكن أن تشبه مسبحة كاينفس المشدودة إلى خيط.

الفخور بنفسه، يتلهى باللعب بحبات السبحة إلى حدّ قطع الخيط الذي يمسكها فتضيع القطع النقدية. إن الملكة هي التي سقطت في الهاوية في فرنسا. فالجلاد المتسيّد ولطالما أطاع أوامرها أصبح يضحك من حال الشدة والضيق التي تداعبها. يقول في نفسه هذا الذي يشبه سكيناً: حسناً.. لكلّ دوره، سأجذب رأس السكين حتى ينتشر النسخ إلى أسفل. سيكون لنا في المستقبل، القليل من السيقان الطويلة، ولكن الكثير من ورق الشجر العاكس للشمس. فالشجرة تميل إلى النمو عمودياً، لنقطع، لنقصّ، لنهشّم وليمرّ كل هؤلاء النبلاء على هذا الصراط.

وفعلاً، فقد مرّ بهذا الصراط عدد كبير منهم، ولكن الكثير منهم كانوا كالمغامرين الذين يغوصون في الماء كلما أحسوا بعاصفة، حيث إنهم كانوا يهربون ثم يعودون.

في هذا العهد، ظهر شاب ذو سحنة بيضاء ووجنتين محفورتين وشعر طويل وفكر متقد.. كان متحمّساً ومستبدّاً، وكان خياله محتدماً، كما كان له قلب جاف وإرادة صلبة. وضع هذا الشاب كهدف له في الحياة، تحقيق فضائل الجمهورية وبلوغ عرش حب الوطن بفخر.

كان ذلك تعبيراً عن عبقرية وطموح ومجد، ولكن كانت الهزيمة كبيرة أيضاً!

كان ابن الثروة هذا خارقاً للعادة. فلو عاش خمسين سنة، ولم

تُزرع طريقه بالمهالك، استولى على كل العالم.

عندما أطيح بالملك، أصبح الناس البسطاء حاملي الإشارات، وأخذ الملوك الذين أطعموا البرعم يسرّعون الخطى وهم متعبون ومصابون بالعرج. كان بعضهم نحيفاً وجائعاً وبعضهم الآخر ضعيفاً وأحمق. هكذا تقهقرت فرنسا إذاً، وتراجعت مكانتها. فقد كان الوافدون الجدد يريدون قلب مؤسسات من كانوا يسمونه الغاصب وكأن الحق في العرش لا يعود بالأحرى إلى الرجل الماهر حتى يقع افتكاكه من عديمي القيمة الذين يستلمونه عن طريق الميراث.

إن الشعب المهان، الذي لا يعبأ بالأمر كان يئنّ، متأسّفاً على عهد كان فيه شعار البلد يرفرف فوق كاهل أوروبا، وليس على علم باهت. كان هذا الشعب في بعض الأحيان يخرج من قصوره فيعضّ على الفرامل. وفي إحدى المناسبات عرف أنه إذا أراد هزم من قصموا ظهره فما عليه إلاّ الحراك فهاج وسقط السادة واختفوا.

قد لا نحسن التمتع بحرية تم استرجاعها، بعد أن أُغتصبت.. هذه ليست حقيقة خاصة بالأوروبيين أو الآسيويين.. إنها تهمّ العالم كلّه! يحدث غالباً أن أمة تفتقر إلى قائد، تكون كالفسطاط العائم فوق الأمواج التي تجري به في كل الاتجاهات حتى يضمحل تحت هيجانها الذي لا يتوقف.

وبالنسبة للبواخر أو لدولة، لا بدّ من يدٍ من حديد لإدارة القيادة! قد يكون ما أقوله نوعاً من التفاهة، ولكننا في بعض الظروف المعلومة

قد لا نتعب من التكرار.

وهكذا إذاً، فإن الحكومة التي لا تفرض التزامات قوية على شعبها، قد تألّبه ضدّها! فبمجرّد مجيء مستبد أحمق، تصبح الثورة المسلحة واجباً مقدساً، لأنه يكون بالإمكان تغيير الأوضاع إلى الأحسن.

إن الأمم لم تتأمل بما فيه الكفاية، هذه البديهية لأحد الصينيين: «الثورة هي دائماً السم».. إذا لم يمت من تناوله فسيعاني بكل تأكيد من ألم المرض. لا ينبغي أن نضجر من سيّد إذا عرف كيف يكون قويّاً مع قدرة على التمييز، وإذا عرف كيف يرفع عالياً اسم بلده ويجلب له التقدير العالمي. فالكرامة المفروكة، والضغائن الخاصة تجب التضحية بهما أمام شرف الوطن.

وبناءً على هذه الأفكار التي أرجو منك تأمّلها، أجيبك وأنا أنزع الحذاء من ساقي اليمنى، مقدماً لك بكل تقدير حذائي بلا كعبٍ، والذي يكفي أن تلقي عليه نظرة ليصبح أغلى ما في الحياة وحتى النهاية!

كوان فو

X – متاحــف باريــس

ما إن انتهيت من هذه الرسالة، حتى سارعت للتعرف على أسرار الحياة في باريس.

ومنذ الأيام الأولى لحلولي في باريس أطلعني فرنكور على أهم المعالم، وأكبر الصروح فيها.. كانت عيناي مشدودتين بدهشة إلى قصرٍ فسيح كان قد سكنه السادة في فرنسا. وكان كما يقال شاهداً على الأحداث الأكثر تنوعاً، والأكثر مأساوية. وقد تعرفت على الكثير منها، لكن ذاكرتي لم تحتفظ إلّا بالقليل من تلك الروايات. أتذكّر فقط أنه سال دم كثير، وحصلت خيانات وفضائح كثيرة.

وقريباً جدّا من القصر، كان هناك مجمّع كبير من المساكن، يقيم فيه الجنود والفنانون والخدم وصغار الموظفين.

كان هذا القصر يشبه الدابري في ميكادو.

وقد أقيم بجانب هذا المجمع، صرح اشتمل على أشياء نادرة لا تقدر بثمن.. قطعنا غرفاً ملأى بالتماثيل والنصب. وأعترف بأنني للوهلة الأولى لم أستسغ ذوق العموم، حيث إنه فعلاً كلما تعرى أشخاص بصفة تكاد تكون متهورة، أمام الزوار والزائرات، فإن ذلك لا يثير غضب أحد، بل كان ذلك محل إعجاب واعتبر من أجمل ما في العالم. وقد لاحظت باستغرابٍ كبيرٍ أن أصحاب المقام الكبير في هذا العهد كانوا يظهرون في لباسٍ شفّاف، وكانت الكتف واليد

والصدر والساقان مكشوفة. لقد كنت شبه مصدوم.. كنت أقول في نفسي: كيف يمكن لرجالٍ ونساءٍ لا يتجرؤون على أن يظهروا ولو لدقيقتين بذلك اللباس، أن يقبلوا لذريتهم الظهور بذلك الزي المضحك والمخالف لأبسط قواعد اللياقة، والذوق الجميل.

كنت أفكر في غرائب الأوروبيين، عندما وجدت نفسي مصادفة في قاعة فسيحة زيّنت حيطانها بلوحة كبيرة. أنا لا أتذوّق الفن كثيراً، ولا أحكم على الأمور بقلبي، بل بعقلي، ولكنني في كل المرات التي تأثرت فيها بصرح أو بلوحةٍ أو بتمثالٍ، وفي كل المرات التي أحسست فيها بخفقان شديد في قلبي، وتوصلت إلى أن حدسي لم يخطئني، وأنني فعلاً أمام عمل فني فيه عبقرية.

هكذا إذاً، مواطني الأعزاء يجب أن أقول ما يمكن أن يخجلكم: إن لوحاتكم لا تحرك فيّ ساكناً، بينما يختلج قلبي، وأشعر بالاعتزاز أمام اللوحات الفرنسية. لقد كدت أبكي.. إنهم بحقٍ يصنعون فنّاً عظيماً! فهذه اللوحات تقرّب إلى حدٍ كبيرٍ الحقيقة الملموسة بصفة فريدة، وهي ترسم إليك تارة المشاهد الأكثر مأساوية في الحياة، وتارة تصور مشاهد الطبيعة الأكثر سحراً!

آهٍ.. بالإمكان أن نطعن في بعض مظاهر الغرور عند الغربيين، ولكن يجب الاعتراف بتفوقهم في ميدان الفن.

بعيداً عن ذلك، وبعد أن تجاوزت الأروقة التي استعدت فيها حماسة الشباب، استرعى انتباهي حشد من الناس كان يحوم مسرعاً،

حول دروعٍ قديمةٍ، وألبسة عتيقة، وحطام يعود إلى زمنٍ قد انقضى.

صحت سائلاً فرنكور: ماذا يعني هذا؟

– أنت أمام ذكريات سادة فرنسا.. ملائكتهم، وأشرارهم، وكذلك أغبيائهم وعقلائهم، فلكل منهم هنا ذكرى. هيّا انظر، هذا كتاب صلواتٍ وُجد في بيت ملكة شهيرة.

– قلت: يجب أن تكون هذه الملكة على درجة عالية من الفضيلة حتى يُحتفظ بأبسط ذكرياتها.

– لقد جانبت الصواب.. كانت هذه الملكة قاسية وشريرة. كما كانت تجد لذة في اضطهاد شعبها، وتعذيب عائلاته.

– أجبته بصوتٍ مرتفع: أخبرني إذاً عمّا تجده يأسر القلوب في هذا الكتاب.. كنت أفضل على ذلك مسبحة امرأة مجهولة، ولكن قلبها كبيرٌ أو امرأة غمرها النسيان وهي حيّة، إلاّ أن التاريخ أنصفها. فأمام ذكرى شخصٍ قديسٍ تسمو روحي المتأثرة نحو الله. أنا أكنّ احتراماً كبيراً للذين يعتزون بالفضيلة. ولما شاءت مصادفة الميلاد أن تجعل من هذه الشريرة ملكة، كان لزاماً على الذرية أن تتحمل تبعات ذاك النفوذ الأخرق لهذه الملكة المتوفاة، وأن تتعامل مع ممتلكاتها وكأنها أشياء نادرة، إلاّ أن هذا أيضاً انتصار لوازع الشر، فهذه الذكريات المغشوشة تغيظني.. لو قدمت لي قلم كاتب شهير، أو مقص نحات بارز، أو سيف محارب باسل لشكرتك، لأنك بذلك تكون قد حببت الإنسانية إلى نفسي وهي التي تفخر وتعترف بفضل عباقرتها. أنا لا

أحفل كثيراً بمعظم هذه الأشياء، التي لا تذكر بشيء ذي بال، اللهم إلا الظلم الذي يتواصل تكريسه بعد موت مرتكبيه.

لماذا ذاع صيت هؤلاء الذين تُعرض عليّ ملابسهم وذخائرهم؟ إنّني أجهل الجواب، ذلك أن هناك اعتقاداً بأن ذرات من الدم الرفيع كانت تجري في عروقهم. ومن دون هذا الاعتقاد كانوا كلهم تقريباً، معرضين للتجاهل، والنسيان مثل مزارعي قراكم.

سيكون الموت قد سوّى بينهم. وما كنت أرغب في اكتشافه هو متحف للقلوب الكبيرة، نجد فيه إلى جانب ثياب الفقير الرثة، صولجان الملك الذي كان في حياته أباً حنوناً لشعبه. أي دروس سامية يمكن أن يسديها مثل هذا المتحف! وبذلك تكون المساواة التي تعدّ الحلم الأبدي للنفوس الطيبة، قد وجدت في مثل هذا القصر، أحسن مقرٍ لها.

كأني أرى في الصف الأول من هذا المتحف، السيف الكبير، وتاج هذا الملك الذي وضع عندكم أسس العدل، فهو رغم أنه كان جاهلاً أدرك مزايا العلم.

وكأني أرى هذه المرأة الشجاعة، التي أنقذت فرنسا، وكذلك ذكريات هذا العبقري الكبير، الذي رفع شعبه منذ 60 سنة إلى مصاف الشعوب المتحضرة.. بل كأني أرى هذه القبعة القديمة، التي كانت تغطي رأسه وقد مزقها الرصاص، وهذه السترة الطويلة التي تغطي كتفيه.. إن هذه الأشياء تخاطب عقلي وتحمسني، لأن هذا الرجل

كان في الوقت نفسه كل شيء ولا شيء أيضاً.

كان ابناً لهذا الشعب، فقام ليفتح الآفاق رحبة لكل القلوب، وهذا ما حرك مشاعري.

ثم إن فرنكور اصطحبني إلى القاعات الموجودة في الطابق الأعلى، حيث اصطفت وكأنها ميناء بحري فيه خيزرانيات وبواخر وجذعيات، وهناك تعرفت على سفننا عن طريق مرفاعين، ومنقار عقاب من عهد مينجس، ولم أر أي زورق من زوارقنا الحالية.

لم يكن هذا الجناح من المتحف، أقل جاذبية من الذي سبق أن شاهدناه. ولما كان هذا الجناح يحتوي على خطط مدققة لأماكن ذات أهمية كبرى، كانت تشير هنا إلى نقطة سهلة البلوغ، وهناك إلى أسوار غير محصنة، وبعيداً عن ذلك إلى بطاريات مخفية وراء هضابٍ وهو ما دفعني إلى الاعتقاد بأن القوى الخارجية لا ينبغي أن تحرم من الانتفاع بهذا الكم من المعلومات القيمة.. من ذلك أن هذه القوى إذا ما صممت على شنّ هجوم على فرنسا، فسترسل حتماً مهندسين، ليطلعوا على هذه الخطط الرائعة، حيث يمكنهم أن يتأملوا.. كيف تم تحطيم ذلك الحصن وكيف قُصف غيره.

وبوسعكم أيها القراء الأحرار، أن تعتبروا أن هذا النوع من الثقة لدى الفرنسيين، مخالف بالفعل لقواعد الحذر. أما أنا فأرى في ذلك دليلاً على كبر همتهم. فكأن لسان حالهم يقول: «إننا لا نحتاج إلى الحيلة، فمتاريسنا لا تكمن في هذه الأسوار من الحجر، ولكنها تكمن

في شجاعتنا التي تعد أكثر رسوخاً من الحجر.. «إنني مدرك لجواب العراف كولوكولو الذي يعرف مكان ضعف الحجج».

«رائع.. قالها فرنكور بصوتٍ مرتفعٍ، ولكن الأمر يبدو عبثياً. فالأمم يجب أن يحتاط بعضها لبعض مثلما يُحتاط من الطاعون، حيث إن شعباً مجاوراً ما هو إلاّ سارق مترقب، ينتظر الفرصة لدخول بيتك. حاول أن تلقي هذا الخطاب على شريرٍ يفكر كيف يسلبك بالقوة، وقل له: سيدي، هذه أسرار أقفال بيتي، وهذا هو الممر الذي سيكون عليك اتباعه للوصول إلى غرفتي، وهناك تجد مغلاقاً فتقوم بكسره ثم تقتلني غارساً خنجرك فوق ذقني بقليل».

إلا أن كولوكولو، صاحب عقلٍ وهو عدواني إلى حدّ كبير، لذلك فلن نكلف أنفسنا عناء إلقاء المزيد من الأسئلة عليه.

بعد التعرف على الملاحة البحرية، جاء دور العراقة، حيث إن العديد من القاعات كانت مخصصة لتذكير الزوار بأن الشعب الفرنسي، ليس الشعب الوحيد الذي يهتم بالصناعة والفن. فالجناح الذي كان يلي مجمع السفن، كان مخصصاً لتقديم شهادات عن عبقرية كل أمة.

وبصراحة، كنت سعيداً بهذه الفكرة الجميلة. فالمقارنة بين الأشياء هي عامل مهم للرقي، لأن الحضارة تذوب عندما لا تنمو في تواصل مع النور الذي تنتجه كلّ الشعوب.

وتكون هذه المتاحف مفيدة عندما تخدم ذلك الهدف النبيل.

باختصار.. يمثل المتحف الأرض التي تتنزه، وتسافر فيها من دون حدود.. سأسميه قصر العوالم، وستكون في مدخله خرائط وخطط ومناظر تحيل آنياً إلى مناطق بعيدة.. سوف نخصص القاعات الأولى لآسيا، لأن الإنسان قد يكون بدأ تاريخه في الأعالي التي تغطي التيابات، فنظام العالم مبني على التسلسل. أحب لمتحفي هذا أن يستوقفني عند كل محطة من تاريخ الأمم. هنا سوف نجد ذكريات عن العهود الغابرة، وأبعد من ذلك شهادات عن الحقب المعاصرة، حتى نصل إلى سنة الفضائل التي نعيش فيها.

أتابع بتدرجٍ تحولاتِ الإنسان، وأقرأ بلا سابق إعداد تاريخ حياته منذ خلقه حتى يومنا هذا، وهذه المجموعة سوف تدفعني إلى التفكير، وتحيلني بأحاسيس شاعرية إلى الماضي. وعندما يزور الناس هذا المتحف فسوف يتذكرون أجدادهم، وسوف يقارنون بين صناعة الصينيين والروس والفرنسيين، وبين صناعتهم.. إذا أرادوا ذلك وهو أمر ممكن. فهناك مهن ومعامل منمنمة ومعروضة أمام الأعين. وتأكد بأنهم سوف يدرسونها، لأنهم يهتمون بما هو مفيد. فالناس يدركون أو هكذا ينبغي أن يفعلوا أن الأمم لا تتقدم إلا إذا هضمت اكتشافات الأمم الأخرى التي تعد أخوات لها.

XI - المكتبات

قلت لدليلي: عزيزي فرنكور، كل هذا الذي رأيته عجيب، ولكنه لا يسمح بالكثير من المعرفة الروحية. فكل الأروقة التي سرنا فيها تلهم الفائدة، ولكنها لا ترقي الروح.. المتحف يجب أن يكون كالمعبد حيث يجب أن تُدرك البركات الإلهية.. لنترك هذه الرقائق، ففي ما شاهدنا الكفاية.. خذني إلى الملاذ الذي يقصده العلماء والدكاترة لتعرفني إلى أبناء عمل الفكر المنكبين دوما على الكتب القديمة، والرقائق وهم يولدون الأفكار في أدمغتهم القلقة، متأملين في كيفية السمو بهذا الإنسان.

- على هواك، لندخل مكتبة... ثم إنه صعد بي درجاً عريضاً، أوصلنا إلى قاعة فسيحة حيث يمكنك أن تجد المئات من أصحاب الرؤوس الصلع، عاكفين على طاولات طويلة.

- قلت لفرنكور: هؤلاء الرجال الموجودون هنا، هم الذين أكسبوا أدبكم شهرته؟

- كلاّ ثمّ كلاّ.. هكذا ردّ علي فرنكور بسرعة. ربما كان هناك واحد أو اثنان من بين هؤلاء العاملين الذين لا يكلون، قد أسهما نوعاً ما في إعطاء أدبنا شهرته ولكن كن متأكدا أن الباقين لم يسهموا ولو بحبة خردل في صيتنا الأدبي الذائع.

- إذاً، هؤلاء المشتغلون في حقل الذكاء هنا، ما هم إلا حديثو

عهد بالأدب؟

– لا بالتأكيد، إن معظمهم علماء كبار، ولهذا السبب فهم مجهولون تماماً. في فرنسا يشبه الأدباء الخيل، التي تمشي أطول المسافات كلما كان حملها خفيفاً!

– صحت بأعلى صوتي: شيء لا يُصدّق.. لا يُصدّق!

عاد فرنكور إلى قول: ومع ذلك فالأمر في غاية البساطة.. لكي يصبح المرء بحاثة وعالماً عليه أن يسخّر للدراسة الليل والنهار، وعليه أيضاً أن يردد في ذهنه ما حوته صفحات الكتب، وأن يقارن بين الفلسفة القديمة والفلسفة الحديثة وأن يتعمق في عبقرية القدماء والمعاصرين وأن يدرك تسلسل كل شيء. وباختصار، عليه أن يُسجّل على العَلم الذي يرفعه وبالخط الكبير كلمة: «عمل». تلك هي حياة الذين يسعون إلى اكتساب ذكاء كبير.

وعليه، فالذي انقطع وسخّر نفسه لهذا العمل الشاق لسنوات بأكملها، لابدّ من أن يكون قد هجر العالم وعاش بعيداً عن المجتمع. فالسكون يسجن الإنسان، ومن تخلّ عن التواصل مع الناس فلن يكسب أية شهرة.. تلك حقيقة دامغة. وبإمكانك أن تصل هنا إلى الخلاصة التالية:

هؤلاء الناس الشجعان الذين يفنون أعمارهم في العمل، قد ينتجون مؤلفات عجيبة، ولكنك لن تجد أحداً يقرأها! إنهم الهالكون المنبوذون والضحايا، والناشرون الذين يقبلون التعامل معهم يضعونهم

على عمود التشهير، وهكذا يرهقهم علمهم. قد يكون أجدى ألف مرة بالنسبة إليهم، أن تكون معلوماتهم سطحية جدّاً وبذلك يدركون أكثر فساد العالم، فيكون عندها بإمكانهم استغلاله للوصول إلى الشهرة. أبناؤنا المشهورون ليسوا في هذه القاعة، فليس لهم ههنا ما يهمّهم فعله.

كلمتان، يمكن أن تلخّصا فكرتي: هنا في هذه القاعة نجني العلم، ولكننا لا نحقق الشهرة.

إن حقل الآداب في فرنسا، يشبه عندكم معامل الخزف الكبيرة. فالعمال الذين يحصلون على أعلى العلاوات، ليسوا هم الذين يؤدون أصعب الأعمال، وأنت تعرف مثلي أن المهني الذي يستطيع بأنامله الدقيقة والرشيقة أن يحرك القطرميزات الخفيفة، يحصل على مقابل أسخى مما يحصل عليه من انصاع بحماسة إلى العلم، وظل يبحث عن أنساق كيماوية جديدة. فذلك العامل صاحب يد ماهرة وهو يقوم بعمل له مقابل، ويباع بثمن غال، بينما نجد أن العالم صاحب الفكر العميق، والذي يبحث ويحلل ويخترع، قد تمر أسابيع من دون أن تنتفع المصانع بنتائج اكتشافاته.

الأمر الحسن يأتي دوماً ببطء، وهو كذلك ينتظر النجاح.. يداهم الكبر ذاك العالم الذي تظهر عليه التجاعيد، وتضعف عظامه ويشحب وجهه فوق القرنية فالأموال التي حصل عليها بالكاد تسمح له بأن يعيش، وقد تدفعه الحاجة إلى بيع الأنساق التي اخترعها بثمن بخسٍ

وفي كثير من الأحيان قد تُسرق منه هذه الأنساق من طرف متمرنٍ لا قيمة علميه له.

هكذا إذاً تتطور أحوال الناس.. كم حدث من مرةٍ أن رئيس مصنعٍ ضخم الجسم وذا كبرياء، يملك المال والسلطة ويتباهى بعلم الكيميائي الذي يشغله، وبعناوين بعض عماله.. له الشرف كله، وله المستقبل كله.. يكون مفاخراً بموهبة مرؤوسية الاثنين.. يمشي وسط الناس بخطى مطمئنة، ومعلناً في كل مكان أنه صاحب عبقرية.

ولو سمح لنفسه لكان موظفاً كبيراً من الدرجة الأولى، أو صاحب أكبر مقام في الإمبراطورية.

قلت: صديقي فرنكور.. إنك تبدو لي نوعاً ما، قاسياً.

فأجابني بسرعة: لم أقل إلاّ الحق إلاّ أنني في الأصل لا أحفل بهذا كله. إنني والحمد لله لا أقلق من شيء، فالمغرّرون والغشاشون، والمستغِلون والمستغَلون، كلهم يزدحمون على هذه الأرض.. ذلك هو قانون الوجود. الكائنات يلتهم بعضها بعضاً، من يجهل هذا؟ من الغُثة إلى الإنسان يمزق ويقتل ويأكل بعضه بعضاً.. ما العمل والحال تلك؟ أيسر الأمور أن نضحك من ذلك دون أن نكلف أنفسنا عناء التفكير فيه.

لننس الموضوع إذاً، ولنتحدث في أمور أخرى.. هكذا قلت بأعلى صوتي، ثم واصلت: ليتك تعطيني بعض الإيضاحات عن هؤلاء الناس الأجانب، الذين يحيطون بنا، فأنا أرى أن هناك شبهاً

كبيراً بين الكثيرين منهم، وبين أولئك المعتقلين في حصن ماياكو الشهير، والذين عوقبوا لسبب يتعلق بالأمن العام.. إنهم يديرون نظرهم بطريقة تخيف حتى الماندشوا بكنفيشيوس.. لو زعمت أن هؤلاء الناس عقلاء، لراودني الاعتقاد أنهم......

ردّ فرنكور بسرعة: إنهم مجانين

– قلت – قلت هذا ...

كان دليلي يدعوني –حسب ما فهمت– الدكتور المضحك.. لم أفهم المقصد الإيجابي لهذه العبارة، ولكنني ظننت أن فرنكور يشيد بنفاذ بصري، لأنه واصل حديثه بلهجة حادة:

– أتحب أن تعرف شيئاً عن العقول التي حوت هذا البناء؟ آهٍ! إنها عبارة عن المطيرة التي حوت كل العصافير، من كل الألوان.. هنا تجد القارئ الجيّد والمهووس واللامبالي والأخرق والغبيّ.

فالقارئ الجيّد هو عادةٍ شاب، يكدس مواد على مواد.. إنه يعدّ لبناء صروح تكون حسب زعمه، أكثر صلابة من سور الصين العظيم.. يسعى إلى بلوغ كل الشرف وخاصة في المعهد، كما أن رفقته شهيرة.. ينشر في بعض الأحيان أعمالاً لافتة، كما ينشر أعمالاً فاشلة جداً هي في الغالب بمثابة كنوز تلقى في البحر –لحسن الحظ– لكنها نادراً ما تضيع.

أما القارئ المهووس فإنه يتزايد بسرعة.. ما هو في أغلب الأحيان إلا ذاك الرجل الذكي في عهد انقضى.. أصابته الخيبة من عدم تحقيق

الآمال في الضيق والشدة. وقد دحرته العاصفة فاستطاع هذا الشيطان البائس أن يتميز وهو فوق سطح الماء، فقد أمسك بحافة حجر وثبت عليه، ما أدى إلى تمزق صدره، ولكنه حبك نفسه بحب. يعتقد أنه سوف يجد خلاصه على هذا الصخر.. البائس الذي يفني قواه في معارك عقيمة، وسيموت وهو لا يزال يأمل. أما القارئ اللامبالي فإنه يتناول كتاباً لا لينضّج ذكاءه، بل لتمضية الوقت. فعقله عبارة عن موسوعة لكنها غير متجانسة. هناك صفحات، بل مجلّدات كاملة مفقودة من هذه الموسوعة.. إنه لا يتطلع سوى إلى تلهية النفس. أما القارئ الأخرق فيتصور المشروعات، ويتقد حماسة لتحقيقها من دون انتظار.. يستطيع فكره المتحمس أن يستشف مستقبلاً واعداً في فكرة جالت كالبرق.. إنه يكشف عن كتب منسية، معتقداً في بعض الأحيان أنه مؤلفها، فينبش في تلك الكتب ويتفحصها بغرام، ويتغذى منها بنهم أياماً عديدة.. إنه يستمتع بسعادة كاملة، ويفترض أنه رجل ذو شأنٍ، فيتحدث إلى الكتّاب الذين اطلع على كتبهم، ويرفع الكلفة معهم فيناقشهم ويهاجمهم. قد يعجب بهم الواحد تلو الآخر، ثم لا يلبث هذا الشعور أن يذبل، فتبرز في فكره أفكار أخرى.

أما القارئ البليد فإنه لا يعرف إلا كتاباً واحداً. ومع ذلك فهو لا يفهمه جيّداً.. إنه يعيد القراءة من دون توقف، من أول صفحة في الكتاب إلى آخره. وعندما ينهي قراءة الكتاب يعيد الكرّة.. إنه يزيف الآداب، وينام في الحصة من خمس إلى ست مرّات، ثم إنه يأتي ليتدفّأ

في الشتاء ويتبرّد في الصيف. المكتبة بالنسبة إليه ليست محرابا للعلم، ولكنها ببساطة أحد المحال.. يعيش فيه، فيأكل وينام وكأنه في بيته.. إنها إقامة تقاعده ليست إلاّ!

قلت بصوت مرتفع: يكفي.. يكفي، لنغادر في أقرب وقتٍ. أحب أن ترافقني إلى جمعيات الرجال الذين سموا بعقولهم، فقلبي يحترق لرؤية أهل الأدب الذين يمثلون قمة فرنسا.

– حباً وكرامة! على هواك يا دكتوري العزيز.. سوف نفعل ما يجعلك سعيداً. هكذا جاء ردّ فرنكور الذي فاجأته في هذه اللحظة وهو يثني شفتيه تعبيراً عن السخرية.

سرنا بسرعة، وما لبثنا أن دخلنا قصر الأدباء.. إنه مجمع بناء متواضع. ومقارنة بالأبنية الفسيحة التي تحتوي على أشياء نادرة تحدثت عنها سابقا، يبدو أن هذا القصر غاية في البساطة.. كيف نفهم سبب هذا الفرق في الفخامة؟ أوليس الناس هم الذين يصنعون الأشياء النادرة؟ هل من الممكن أن تفوق الأعمال الناس الذين صنعوها قيمة؟ لم أعد أفهم شيئاً، ففي اليابان نحن نعطي للمبدعين مكانة أكثر شرفاً من مكانة الإبداعات. أما في فرنسا وعلى ما يبدو، فإن تقدير الأمور مختلف بعض الشيء.

كنت متشوقاً جدّاً إلى معرفة أعمال النخب الذكية والتي تمثل رحيق فرنسا. أحسست أنني أطأ أرضية معبد حيث تجد العبقرية الخالدة مريدين وطلبة.. أدّيت التحية بتلقائية أكثر من مرة، وأنا

أمرّ أمام المبنى. «كنت أقول في نفسي: هنا في هذا المبنى يعيش أو مرّ رجال مشهورون.. » كنت أستنشق بسعادة هواء منعشاً ينشط صدري، فتأثير المكان كان بالنسبة لي كبيراً.

الأفكار الحية، والإحساس بالسعادة، واحتشاد الأفكار السياسية جعلتني في ذلك الحين أحس بأنني أملك خيالاً أوسع، وعبارة أفصح، وروحا ميالة إلى المشاعر الكريمة. فكل شيء هنا بما في ذلك البلاطة القديمة كان يذكرني بأنه قبل مجيئي إلى هنا كان قد مرّ من هنا رجال ذوو شهرة.

فاتحت دليلي فرنكور بانطباعاتي عن المكان، وكان كل جوابه أن يضحك ثم إنه طلب مني، دخول مبنى يوجد فيه 30 رجلاً أصلع، كانوا جالسين على مقاعدهم، ولم يكن مظهرهم يوحي بشيء.. غطّ العديد منهم في نعاس، بينما انغمس الآخرون في حديث هادئ وكان صوت أحدهم أرفع من صوت الآخرين.

كان هذا المتكلم يقول: «سادتي، إن جمعيتنا هذه ليست معبداً للفكر فقط، بل إنها معبداً لأسلوب الحياة التقليدي في أنقى تعبيراته. ولو حِدنا ساعة فقط عن هذا الأسلوب، فإن الآداب الفرنسية التي نتحمل نحن مسؤولية ترقيتها، سوف تنهار، وسنسقط في فوضى كاملة للأفكار.

لا كبير إلاّ وقد مات! ثم إن الخطيب تناول كأساً من الماء ومسح جبينه، ثم عاد إلى الكلام قائلاً: هل يعني هذا أيها الزملاء أصحاب

السمعة العالية، أن الأعمال التي تحققت بفضل عبقريتكم آيلة للاندثار؟

لا وكلاّ.. أنتم أصحاب عقول عظيمة، لأنكم تتمسّكون بماضيكم. فأسلوبكم وأفكاركم محل تقدير دائماً، لأنكم –وهكذا ينبغي القول– قد نحتّم ذلك على عهد كبير.

«إن الرقي في مجال الآداب يتمثل في التمسّك بقرنٍ أُعترف له بالمجد أكثر مما هو في التجديد، فالسير ينهكنا بينما تقوّينا الراحة!

إذاً! سادتي لنبنِ حولنا سوراً مثلثاً، ولنمنع التوجهات المذوبة لهذا القرن من الوصول إلينا. وإذا كانت هذه التوجهات الآن تهدد ملاذنا فلنعلنها حرباً لا ترحم.

«ففي مأمن داخل أسوارنا المقدسة، وبعيداً عن مجرى الصخب، نعلن تعلقنا بتمثال الآداب التي تحلق بأجنحتها البيضاء حولنا!»

على إثر هذا الكلام، تعالت صيحات الإعجاب من طرف الحضور. فسألت دليلي قائلاً: بصراحة.. قل لي ماذا يفعل هؤلاء الناس هنا؟ هل يأتون لسماع مثل هذه الترهات؟ ففي اليابان الناس المرموقون مثل أصحاب هذه الجمعية، يهتمون بالمستقبل أكثر من اهتمامهم بالماضي، الذي إذا ما تعرضوا له فإن ذلك يكون من خلال نظرة استشرافية. فعندما ندرس التاريخ لا ينبغي أن يكون هدفنا الوحيد أن نجثوا عند حقبة مضت لنصيح: «لقد كنت محل الإعجاب ولا يكون جميلا من لا يشبهك!».

«ذاك زمن فات، والناس الذين غادروا الحياة لن يكونوا أبداً إلاّ جثثاً!» علينا أن نتقدم إذا كنّا نريد ألاّ تداهمنا الشيخوخة.. هذا يا صديقي فرنكور ما نعتقده في اليابان.

وكجواب على كل ما قلته كان الماكر فرنكور يبتسم بخبثٍ كبيرٍ. فبعدما تحدثت إليه قرابة ساعة لم أظفر منه إلا بهذه الردود السريعة التي لا تقنع.

«هيّا بنا.. لنضع حدّاً للسخرية، وسِرْ بي إلى مقرّ آخر، فالسأم بدأ يهجم عليّ. فهذا المدح الطويل، حول مزايا التراث.. يجعلني أتثاءب مثل رعاع سيموادا...

هيا بنا!

أجابني فرنكور: إلى أين؟

– إلى خارج هذا المكان.

– كلاّ وكلاّ يا دكتور.. كلاّ، علينا أن نواصل الذهاب إلى آخر المطاف.

كان هناك بابان ينفتحان ثم ينغلقان.. سلكنا ممرّاً طويلاً.. نزلنا أربع درجات، ثم صعدنا درجتين – أدخلتانا قاعة صغيرة كانت إضاءتها ضعيفة.. أخذنا فيها نصيباً من الراحة – طلب منا حاجب أن ننتظر خمس دقائق على أقصى تقدير.. انقضت ربع ساعة، ثم شاهدنا رجلاً عجوزاً يعرض علينا أن نحصل على نصيب من التدفئة في قاعة مجاورة، معتذراً في لطفٍ عن الوقت الذي ضاع منّا.. كان

علينا أن ننزل من جديد.. تجاوزنا دهليزاً كانت جدرانه تنضح وكأننا أمام حالة ذوبان جليد، ثم ما لبثنا أن وجدنا أنفسنا في غرفة مظلمة لا يُرى فيها إلاّ وميض ضعيف، يلمع داخل المدفأة في ما يشبه دودة التوريق.. ارتعشت أنا وفرنكور.

– أين أنا؟ قلتها بصوتٍ مرتفع.. بربكم أين أنا؟ في هذه اللحظة كان رفيقي يضحك هازئاً مطلقاً تصفيرة بوساطة أصابعه، فواصلت: بربكم، أين أنا؟ لقد سكنني البرد، ولو بقيت على هذه الحال طويلاً سأموت!

أجابني فرنكور: أنت يا دكتور في مدخل كواليس سراديب الأموات والمدافن. كانت هناك هياكل عظمية معلقة في السُقف، وعظام لأموات رُصفت على الأرضية، وموميا وات مكدّسة في الزوايا.. كان الهواء الذي نتنفسه يوحي لنا بكل ما هو قديم.. كان هواء العصور الخالية، ففي كل يوم تفرغ هنا جيوب أكثر ارتداداً من جيوب إيول.

كانت هناك منافخ، تضخ فوحاناً ثم تصبه على بعض الآلاف من الأفراد. كنت أصيح: أريد هواء أتنفسه، أريد هواء! إنني أختنق، أحب أن أرى النور من جديد وأن أرى صفاء السماء! أريد هواءً أو شمساً! إليّ يا فرنكور!

– لم ينته كلّ شيء.. هكذا أجابني دليلي فرنكور.. الباب الذي ولجته عند الدخول ليس الباب الذي سوف تخرج منه.. أنت تخشى

الاختناق! هذه صبيانيات.. هناك من هم أقل صلابة منك، ومع ذلك فقد صمدوا في هذا التمرين.

وأخيراً.. سمعنا حركة مزاليج وهي تصرّ في أنعالها الصدئة وانفتح باب على شخصين مصارعين.

توجه إلينا رجل طويل، شديد النحافة، ذو وجنتين غارقتين، محلوق الرأس تماما وكانت شفتاه متدليتين ليقول لنا: بفضل حركة نبيلة، وتوسّلات مملة سُمح لنا بأن نأخذ مكاناً داخل هذه البناية - ثم إنه دفعنا داخل غرفة كبيرة، كان فيها خمسون شخصاً متكئين على عصيهم.. كانوا يشبهون مُقعدي لوزاكا الحقيقيين أمام مشفاهم! ماذا كان هؤلاء يفعلون؟ لا أعرف. لقد كانوا يتنازعون كثيراً.. هذا ما لاحظته. كان هناك أيضاً شيخ يقرأ في مذكرة كبيرة الحجم، لم يكن أحد يسمعه، ولكن الحضور كانوا يصفقون بانتظام كل عشر دقائق. كانت القراءة متواصلة ويتتالى تقليب أوراق الكتاب مثلما تتتالى أيام الشتاء الممطر.

- همس إليّ فرنكور بصوت خافت: هل تسمع؟

- فقلت: نعم، ولكنني لا أفهم شيئاً!

- ردّ فرنكور: ولا أنا أيضاً، رغم أن ما يقرأه مهم للغاية.

- قلت: وكيف فهمت؟

- أجابني فرنكور: بالضبط، لأنني لم أفهم ولو كلمة مما يُقرأ.. انظر إنهم يصفّقون!

- قلت: ولكن يا عزيزي فرنكور، لا أحد منهم منتبه لما يُقرأ.. إنهم يصفقون كيفما اتّفق.

- لا يهمّ، فما يُقرأ مهمّ للغاية.. هذا العالم صاحب عبقرية.

- باسم الإله أنت تربكني!

- أتمسّك برأيي: إنه رجل صاحب عبقرية، وذو شهرة طائلة.. إنه يعرف التاريخ وكأنه عاش ألف سنة.

- قلت: وهل يعمل لترقية الإنسانية؟

- لعمري، قال فرنكور مستعيداً الحديث: أنت تحرجني بصفة غريبة.

فالرجال الذين تتعرف إليهم هنا، يشتغلون أولًا لتحسين أوضاعهم.. إنهم يستثمرون الماضي مثلما يستثمر غيرهم قطاعاً صناعياً أو منجم فحمٍ أو حديد.

- قلت له بسرعة: عزيزي فرنكور، منذ ساعتين وأنت تنقلني من حالة خيبة إلى أخرى.. إنني لا أرى هنا إلا أناساً طامحين أو حاسدين أو تفاهات بالية.

- ثب إلى رشدك، هكذا ردّ فرنكور عليَّ.. هناك من بين هؤلاء الرجال المحيطين بنا، عقول غاية في التميّز.. عقول مرهفة لأناسٍ لا تنقصهم القدرة على السخرية اللاذعة أو الابتسامة الظريفة.

- قلت: أعتقد ذلك.. لا يهم! قلت ذلك بصوت مرتفع، ولكن صدغيّ كانا يضغطان عليّ وصدري يضيق. فمثل هذا الجوّ يرهقني..

إذا أردت أنت البقاء هنا فسوف أنصرف، عمت مساء!

وأنا أقول هذا الكلام، دفعت الباب بقوة، فوجدت نفسي فجأة في الطريق العام.

XII - جمـاعة من رجـال نحـاف

يقول لي فرنكور بصوتٍ خافت: دكتور، انظر إلى هذا الحشد من الرجال ذوي البشرة السمراء والذين يتنزهون حول القصر وتبدو عليهم آثار الكآبة.

- باسم الله: ما أنحفهم!

- نعم، إنهم نحفاء جدّاً.. فقراء جدّاً.. وأشقياء جدّاً. ومع ذلك فهم رجال علم كبير.. إنّهم يرضعون الكثير من العقول التي سبق أن رأيتها.

- رجال مرضعون؟ هل تريد أن تضحك يافرنكور؟

- أبداً!

- إذاً، لماذا تضحك؟ هل أنت مجنون؟

- بل إن ما أقوله هو الجدّ.. اسألهم إن شئت!

أثار هذا الكلام فضولي بنوعٍ من الحيوية. ومن دون سابق إعداد، اقتربت من أحد هؤلاء الأشقياء وجازفت بشيء من الخجل بالتلفظ بجملة تعبر عن الشفقة فأجابني:

- هل تشفق عليّ أيها الصيني اللعين؟ لتعلم أنني لا أحب أن أكون أضحوكة أمام العامة.. أنا راضٍ تمام الرضا عن وضعي.

- قلت: ولكنك يا صديقي لم تفهمني.. أنا ببساطة متألم عندما يقف رجل مثلك بالباب، في حين أن مَكانه داخل القصر.. كان

عليك أن تسمعني جيّداً.

– صدقت في هذا الكلام! إنها رذالة. فالمجتمع ظالم، غادر، خبيث، أحمق، سخيف، مجنون وسافل. أوافقك على كل هذه النعوت. إنه عبارة عن ماخورٍ كبير ولا شيء آخر. أنا هنا أقوم بدور مُخز.. أعطي من نفسي التي أبيعها، أمارس الدعارة.. إنهم يأخذون مجهود فكري مثلما يُصفق الحليب من المرضعة. بعض هؤلاء الموجودين هنا يشترونني، إنه الإذلال. ألّفت نصف المذكرات التي يقرأونها.. يصفق الناس لعبقريتهم التي هي عبقريتي، ولعلمهم الذي هو علمي. أنا كل شيء وهم لا يساوون شيئاً! اللعنة.

ثمّ إن عالمنا التحف في معطفه بجلالٍ لا نظيرَ له.

توجهت إلى فرنكور بالسؤال:

– ماذا تقول في هذا السيل من الكلام غير المتناسق؟ هل ترى أن هذا الرجل يمتلك كامل قدراته العقلية؟

– إنه في كامل قدرته على الغضب.. هكذا أجابني الرجل النحيف، بعد أن تلقف كلامي ثم واصل: المذكرة التي يسمعها الناس في هذه اللحظة –هاتفين إعجاباً– هي من تأليفي. هل تعرف الشرف الذين جنيته من عملي ذاك؟ ولكن الحياة لابدّ من أن تستمرّ، ورغيف الخبز لا يُهدى.

وعند هذا الحد انصرف الرجل النحيف، ضارباً الأرضية بقدميه ومنشداً وهو في حالة هيجان، بعض المقاطع من قصائد شعبية. وعلى

بعد مئة خطوة من ذلك رأيت رجلًا بائساً يناهز الخمسين من عمره..
كانت لحيته موشاة بزغبٍ أبيض، يطفو كشعر حصان، وكانت عيناه تلمعان في تلؤلؤ فريد من تحت تجاعيد كبيرة. كان يوحي للوهلة الأولى بذكاءٍ لافت، وكان مظهره المميز يأسر كاليد الخفية.. كان يحبس الأنظار. لكأنّ قوّة خفية تجبرنا على النظر إليه. وعندما نقترب منه ندرك أننا أمام حطام، ولكنه حطام لصرحٍ وليس حطاماً لأحد المباني المبتذلة.

كان هذا الرجل التعس، يضع قبعة مقعرة كشجرة قطعت الريح القوية نصفها.. كانت يده الطويلة والمعظمة تقبض على لوحة ذات حجم كبير، كان يحاول أن يدسّها تحت ذراعه، وكان يتقدم بعناء كبير بما يدعو إلى الشفقة.

– قلت: من هذا يا فرنكور؟ هل هو نحات مهووس؟

– أبداً.. إنه بكل بساطة رجل عظيم جنح إلى الميناء، وقد تعطبت سفينته، وهلك المركب لانعدام الماء!

– قلت: لو فسرت الأمر بصفة جلية.

– سوف تستمع إلى الجواب منه بالذات، فهذا الرجل البائس يجب أن يحكي قصته مثلما يحكي الرحالة مغامرات جولاته حول العالم.

– أيها الرجل.. أيها الأستاذ الرسام، اسمعنا قليلاً. نحن لا نطلب منك شيئاً، فقط لنا هذه الرغبة: إنك فنان كبير.. هذا ما توصلت إليه،

وأتمنى أن أتحادث معك لبعض الوقت.

– نحن عند طلبك أيها الصيني الشجاع. هل تسعد بسماع الحديث عن كيفية تعامل الغرب مع مواهبه؟

– قلت: نعم.

– إذاً، فإن قصتي ستمكّنك من الاطلاع على عيّنة ممتازة. فلنجلس ولتلف سيجارتك بينما أتولى أنا حشو بِيَبتي، وليرقُص دخّان العريف الصيني في الهواء السَرَبَنْدة مع دخان نرجليتي الباريسية.. لننطلق إذاً.

ثمّ قال لي الرسام: لتعلم إذاً يا صديقي الصيني أنّ فنّ الطبخ في فرنسا هو فن بامتياز، وأن الفنون الأخرى كلها في خدمته.. تسعة من كل عشرة مواطنين لا يفهمون شيئاً في الموسيقى أو الرسم.

هناك سبعة وثلاثون مليون مواطن في فرنسا، ولا أبالغ إذا قلت: يوجد بينهم عشرون مليون غبيّ يدّعون فهماً عميقاً للفن. إنهم مجانين وبلهاء.. لو صاح دساس بأعلى صوته أن لوحة رسمها طفل لا يزال يرتدي التبان هي تحفة لسار الناس في المدينة يهتفون إعجاباً بتلك اللوحة مثل إعجابهم بقطعة نادرة.

المال الوفير هو الغالب الوحيد في عصرنا هذا. ولهذا فأنا عبدٌ مطيع، رغم أن أفكاراً كبيرة برزت في عقلي.. كنت أحسّ بأنني امرؤ سيّد، وكنت أعشق فنّي. بل كنت على استعداد للموت في سبيله مثلما يموت المؤمن في سبيل عقيدته ولكن، آه، هل أن الوجود

في هذا العالم عبث أم أن الشرّ تفاقم؟ لنواصل الحديث.

كان أبي –مثلما يقال– سائساً، لا يعرف القيام إلّا بشيئين: يغطي الرقعة الأرضية التي بحوزته بالرمل ثم ينام عليها. وقد أحبّ خادمته وكان تحت تأثير شرب الخمر لما قادته إلى الشقاء الذي مثّله له مولد صبيّ تعيس تمنّى له الموت، ولكنه كبر كأحسن ما يكون نموّ المواليد. ومنذ الخامسة من عمره كان يبدو كالفارس المدرّع، وكان يرسم على الأسوار صوراً لرجال تدخل البهجة على مجموعة الأطفال الصغار. هذا الفتى هو أنا الذي دخلت المدرسة ثلاث سنوات بعد ذلك، حيث كنت أضرب بيار أو أقلق بول الصغير، راسماً أحسن كاريكاتور يمكن أن يكون رسم للمعلم كورنشي. ثم ساعدني نضجي المبكر على الحصول على الخبز القفار مع مائة جلدة بالسوط ولما كررت عبثي تم طردي.

كم كان ذلك وقتاً جميلاً في حياتي. كنت أنصرف متسكعاً.. أنام تحت شجرة.. أخرج فراخاً من عشها.. أرسم بالفحم في كل مكان، وأرسم أيضاً بالطباشير وحتى بالطين.

لقد كنت بحق خبيثاً لا يُرجى منه خير.

اشتغلت عند سمكري، فكنت أذوّب الرصاص وأسيله كأنه نتوء صخري. كانت هذه الأعمال اليدوية تصمّ أذني. ولما كنت مصرّاً على تزيين معدات مُشغّلي بالرسوم تم الاستغناء عني بطريقة مفاجئة، فانطلقت من جديد مغنّياً أغنية.. أخطف في الهواء خبزاً يلقيه

أطفال المدارس من داخل أسوارها وأتلهّى برسم مناظر مكتملة في المتنزهات من دون استشارة الحراس.. تمّ إيداعي السجن ورسمت صورة خيالية للملك، نالني من ذلك توبيخ عنيف من القاضي، وحتى أتلهى رسمت على جدار قصر العدالة لوحة لرأس عجيب لم يكن صاحبه سوى أحد القضاة الذين لم تعجبني طريقتهم في الكلام. ثم إن أحد الحراس كان مارّاً بجانبي فأراد أن يحتجزني، فما كان منّي إلاّ أن تخلّصت منه وألقيت بنفسي في نهر السين مثلما تلقى ضفدعة في بركة.

كنت لا أزال أتخبط في الماء.. تدفأت على أشعة الشمس ثم إنني ومن دون أن يخطر ببالي شيء، كنت أبعثر على الأرض حبات رمل أعطت رسماً لتمثال رجل مسلحٍ يضع قبعة على رأسه وله شاربان وشارات سلطة. لقد كان ذلك الرسم صورة ناطقة للعون البلدي الشرير الذي كاد يأسرني. وقريباً من مكاني ذاك، من الجهة الأخرى للنهر كان هناك رجل يرسم على لوحته ضفتي النهر.. كان هذا الرجل يتفحصني وكنت أنظر إليه. ولأتمكن من تأمله ملياً ارتميت مرة أخرى في النهر، وقد تطلب مني قطع مسافة عرض النهر دقيقتين من السباحة. ها أنذا قريب جدّاً من الرسام.. أتأمل مليّاً اللوحة وحابساً أنفاسي حتى لا أعكر جوّ الفنان.

سألني:

– هل تحب الفنون الجميلة؟

- لا أدري ولكنني أحب أن أبقى بقربك.

- ابق، ابق يا بنيّ.

وعند اقتراب الليل، استعدّ الرسام لمشاهدة المدينة فساعدته على تنظيم فرشاياته والملْوَن. أغلقت الصندوق ووضعته على كتفي متوسلًا من جديد الفنان ألاّ يطردني.

- لعمري.. قالها الفنان بعد أن حدّق مليّا في عينيّ.. أنت تعجبني يا صغيري، سأتركك إلى جانبي، وستكون زميلي الوحيد. قد تكون أحد الأشقياء الإضافيين لكن لا يهم.. سوف تعجبك زرقة السماء، وسوف تبتسم لمنظر الربيع، وستغنّي مع العصافير، وستصوم مثلما تصوم الذئاب في الشتاء. فمهنتك الحرة ستجعل منك بلا شك عبداً.

ولأنه كان يتوجب عليّ أن أستصغر نفسي، وأستنقصها حتى أكون في مستوى قامته، فقد رميت بالإسفنج على اللوحة، وكلي غيظ وبكيت مثلما يبكي الأطفال.

بعد سنة من ذلك التاريخ، أحسست بأن خيالي قد انتعش، فانغمست حتى النخاع في رسم لوحة ذيّلتها بإمضائي، وأرسلتها إلى لجنة تحكيم.

كانت أعتقد أنه إذا قُبل العمل تحت اسم مستعارٍ، فسأكون على الفور من الفائزين، ولكن أنّى لي هذا فأعدائي هم كل الرسامين المشهورين، وليس مُشغّلي الذي أعمل لديه، لأنني بقفزة واحدة

أكون قد أخذت مكانهم، فسيفهمون الأمر، ويشتمّون منّي رائحة منافس محتمل ويطردونني.

من هنا تستطيع معرفة بقية قصّتي. كان لابدّ لي من أن أعيش، وبالنتيجة أن أقبل وضعية الاستعباد. أصبح الضغط عليّ قوياً، بينما ضعفت لديّ القدرة على الانعتاق. وهكذا لم تعد لديّ الحماسة نفسها لمزاولة فنّ الرسم، فقد ذبل خيالي الذي طمسه الناس بكل تأكيد.

- قلت له بحركة توحي بالشفقة: إذاً، سوف أحملك معي إلى اليابان وهناك سوف تجد أسباب الحياة المريحة.

- فأجابني: يا عزيزي الموظف الكبير، لا تفكر بالموضوع.. إن الفنون مثل طبائع البشر.. إنها وليدة المناخ، فأنتم في اليابان تحبون نغم الضج، بينما نفضل نحن نغم الكمنجة. إن ملك الرسامين عندنا لو ذهب إلى اليابان لما كان أهلاً لأن يزوّق مركب صياد، بينما أمير فنانيكم لو قدم إلى هنا لاستقبل على الفور في نزل أوتيل-ديو-بباريس.

لقد كان تفكيره سويّاً، لذلك لم ألحّ عليه، ثم إن الرجل البائس استعاد لوحته وبعد أن أنهى سيجارته سلم علينا بمودّة وابتعد، ومنذ ذلك الحين لم أره.

XIII – أحيـاء بـاريس

قلت لدليلي فرنكور: إنني أرى في المحصلة، أن التعساء في هذه المدينة التي تبدو سعيدة، أكثر عددا من المحظوظين.

نعم –أجابني فرنكور– فباريس هي أكبر خليط من الأشياء الغريبة والشاذة. هناك أحياء في مدن راقية، حيث تجد الناس يرتدون اللباس الكهنوتي والقلنسوّة، وأحياء أخرى يستعاض فيها عن اللباس بالميدعة.. كل شيء هنا متنافر. في بعض الحالات نكون نحن المسيحيين على استعدادٍ لوضع شارة الصليب وكأننا في فناء دير، ثم وعلى مسافة دقيقتي سير تدخل في مفترق، حيث يبدو الفجور بارزاً على واجهات كل المنازل بكل ما يطيب لأصحابه.

هناك أحياء للشرف،وأخرى للكبرياء، والجرائم، والعمل، والخمول، والتجهم، والملذات، والأحاسيس الباطنية النقية والرغبات الدنيوية. اتبعني فسوف أطلعك على كل هذه العجائب.. سنصعد أولاً الكنيسة، ومن هناك سنحلق مثلما يقال على كامل مدينة باريس.

لم نلبث أن وجدنا أنفسنا أمام صرحٍ رائعٍ مكوّن من برجين. كان هناك عجوز قصير ومشوه، يبدو على مظهره الخنوع.. اقترب منا فحرك قليلاً قبعته السوداء التي كانت مصنوعة من الحرير، ثم أخرج من جيبه ثلاثة مفاتيح ضخمة، وفتح باباً ثقيلاً مادّاً يده كما يفعل شحاذ، ثم تركنا وحدنا في درج ملتوٍ على شكل حلزوني، كأنه

مسمار ملولب.

قضينا وقتاً طويلاً في صعود الكنيسة، وفي النهاية وصلنا إلى مسطحة، حيث يستطيع النظر أن يسرح بعيداً حول باريس.

سألني فرنكور، وهو يشير بيده إلى جهة الجنوب الغربي: هل تشاهد حيّاً يا بُني على نمطٍ واحدٍ، وتكتنفه الأديرة والكنائس والمساحات والحدائق؟ إنهم يطلقون عليه اسم الضاحية القديمة، لأن كل شيء فيه فعلاً عتيق: الناس، المبادئ والقناعات. هناك تظهر التجاعيد على صغار أبناء الساسة، في سن الخامسة عشرة، بينما ينظر المجتمع إلى المستقبل بثقة. أما سكان هذه الضاحية فهم متنكرون لها، على الرغم من كل شيء.. إنهم لا يكنّون وفاء إلا للموتى.

ثمّ واصل دليلي حديثه: لنلتفت إلى الجنوب.. هناك نجد المكان المفضل للعلماء والأدباء والطلبة.. إنه المكان الذي لا تزال الأفكار الخصبة تولد فيه. هناك في ذلك المكان يواصل قلب باريس دقّ آخر خفقاته.

وبعيداً عن ذلك المكان في اتجاه الجنوب الشرقي يبدأ الفساد المخجل، الذي يعشّش في هذه المناطق التي تتلوى حول سانت جونوفياف. تخفى أعمال الفساد هناك لا لقبحها وإنما لحالة الفقر التي يكون عليها مقترفوه. فعلى بعد فرسخ من هناك يبدو الفساد فاضحاً، وقحاً ومتعجرفاً، لأن الحظ قد ابتسم لأصحابه، ولكن الفساد يبقى منبوذاً في الأحاسيس العميقة للناس هنا وهناك.

لنتّجه الآن إلى الشرق: هل ترى هذه القبة التي على شكل ناقوس؟ إنها كنيسة لبلدة يعيش فيها خمسة آلاف شخص من النساء العجائز والمجنونات والرجال المخبولين أو المصروعين والأطباء والطلبة.. كل هؤلاء يعيشون في هذه البلدة.. إنها الملاذ لكلّ التعيسات الهاربات من مخاطر حياة غير عادية. إنهن يأتين إلى هنا لقضاء بقية سنوات حياتهن في ظل مدينة باريس الراقية، ويمتن في مناخ من التقوى، لأنهن لم يعدن قادرات على فعل الفساد.

والآن نقطع بنظرنا نهر السين لنجد أنفسنا في حي متكون من حظائر ومستودعات، حيث تتكدس جبال من الخشب، الذي يستعمل لتدفئة العاصمة في أيام الصقيع والثلج. فمدفآت المعامل تنفث في الأفق رايات من الدخان، فتبدو وكأنها شموع كبيرة الحجم. عمل وشقاء.. ذلك هو عنوان هذه البلدة التي يكون العامل فيها مثل الطالب، حيث يحافظ على حيوية شبابه. وكأي طالب فإن هذا العامل يرتعش عند ذكر الأفكار العظيمة، كما أن فكره ينشط للخوض في مناقشة المذاهب الليبرالية وهو ميال إلى أفكار المساواة بين البشر.

لنجل بناظرنا الآن في الشمال والشمال الشرقي، حيث تقام هناك المنازل على المرتفعات، وبنسق سريع. إلى هنا يأتي أصحاب الريع المتواضع والضباط والبيروقراطيون المتقاعدون والفنانون المنهكون والعمال الذين أصبحوا أثرياء، والتجار المنسحبون من نشاطهم

التجاري والأساتذة المتعبون، وذلك لقضاء نهاية حياة كئيبة وعديمة الفائدة.

إنها إقامة البورجوازية، صاحبة الملذات الحقيرة والأفكار المبتذلة والعقل البعيد عن السموّ والقلب الأناني.

لنواصل رحلتنا عن طريق تسريح النظر.. ها نحن الآن في حيّ تعتبر فيه المومسات أنفسهن نساء محترمات، وقد يعاملهن المجتمع كذلك.

هل تستطيع أن تميّز هذه المناطق الممتدة إلى الأعلى، وهي تحيط بكنيسة تشبه كثيراً معبداً؟ إنّهن هناك يفرضن وجودهن وكأنهنّ ملكات. فالفرسان وأبناء الملوك يطيعونهن. فهنّ يقترضن من بعضهم مالاً، ويتخذن من بعضهم الآخر عشّاقاً.. يحبّهنّ أناس اليوم ثم يفارقونهن من الغد من دون أسف.

وحول المركز نفسه بقليل، ترى أناساً يحومون، ويبدو أن الحظ ساعدهم أكثر مما ساعد بقية سكان العاصمة.. إنهم أغنياء، ولأنهم كذلك فهم ينفقون بلا حساب.. يحصلون على أغلب ما يطلبون، ولا يفكرون بجدّ إلا في تحقيق الملذات.. يقوّمون كلّ شيء بالمال، ويحتقرون الشرف الذي لا يأتي بالمال.. إنهم يسخرون من الفضيلة ومن الأفكار الكبيرة وفي الدين تراهم يعتبرون أنفسهم أصحاب علم كبير، وإذا لم يُلقَ بهم في السجن فإنهم سرعان ما يصبحون أصحاب نفوذ كبير.

وبعيداً نحو الغرب سوف تتعرف على شوارع واسعة، وطرق

فسيحة وطويلة، أحاطت بها الحدائق.. إنها أوروبا، بل إنها بريطانيا العظمى التي انتقلت إلى باريس. هنا يتكلم الناس الإنجليزية والروسية وكأنهم في لندن أو في بطرسبورغ. الأخلاق البريطانية أثّرت هنا بعمق إلى درجة أن الشابات الفرنسيات أصبحن لا يقدرن على إخفاء أحلامهن في رؤية مواكب اللوردات الشبان، وهم يقفزون على الأحصنة النشطة والمرحة. ولا أدري إذا ما كان منظر اللؤلؤ هو الذي يمتلك خيالهن أكثر مما يمتلكه الفرسان. لا يهمّ كثيراً أن نعرف السبب، أوليست شاباتنا ذوات النية السليمة متبصرات عندما يتعلّق الأمر بالمال؟ فهنّ يقبلن على الزواج بعد تروٍّ وهن يشترطن على المتقدمين لخطبتهن أن يمتلكوا سيارة ويفصحن عن ذلك. إنهن يرغبن في ربط مصيرهن بهذا الذي يملك البيت الفخم، أو بذاك مدير الأعمال الغني ولا يهم أن يكون الزوج أحمق أو قليل الشرف أو كبير السنّ أو غارقاً في الفسق! فبوسعنا أن نعترض! لنمرّ إذاً! فالثروة عندهن لا تكترث بالحمق أو بانعدام الشرف أو بكبر السن.

– آهٍ، يا سعادة العزيز.. كم نحن بعيدون عن ذلك العهد الذي تفرّ فيه الفتاة الشابة من بيت أهلها مع حبيبها غير مبالية بالمصير الذي ينتظرها! في ذلك العهد لا يهتم حديثو العهد بالزواج بصرامة ميزانية البيت أو بمتطلبات الرفاهية أو برأي الآخرين.. إنهم متحابون وهذا يكفي.. إنهم مثل العصافير تحت خميلة، يتناجون بشغف كبير، ويصعدون الطابق الرابع من المبنى ليشعروا بأنهم يحلّقون في الأعالي،

ثم إنهم عندما يعودون إلى بيتهم، ويجدون أنفسهم في غرفة صغيرة متواضعة الأثاث، يجدون إحساساً بالغنى، بل يعتبرون أنفسهم في منتهى الغنى.

– هل تريد أن تعرف المزيد يا دكتور؟

– لعمري، لا. لقد أزلت عني الأوهام أكثر ما يزيلها كتاب في علم التشريح.

– للأسف لم أقل إلاّ عين الحقيقة. لقد فقد الحب ألقه وسهامه.. إنه مثل طفلٍ صغير يبكي، لأنه لا يملك مالاً.. هذا كل ما في الأمر.

التزمت أنا وفرنكور الصمت. كنت أجول بناظري حول هذه المدينة الفسيحة.. إنها حي محموم.. تبدو وهي تئنّ كأنها مريض في حالة من الهذيان. كانت الريح تحمل إلينا حفيفاً مضطرباً مع إيقاعات غريبة، وهدير غير مألوف. هذه الموسيقى المتوهمة كانت تثملني فراحت عيناي تحومان حول هذا العالم، وأنا تحت شعور بالسحر يصعب بيانه حيث تهيج فيّ مختلف الشهوات، وأفكار لا تحصى كانت تتوارد في ذهني، ولكن أيّة أفكار؟

XIV – العقيدة في فرنسا

عندما أضاء نور الشمس، سهام الكنائس، وصبغ بالذهب قمم الأبنية وسطع على زجاج النوافذ وأضاء جانباً من الأفق.. دقّ الجرس الكبير سبع دقات على نغم كئيب. لقد حان وقت خروجنا... في هذه اللحظة صاح فينا بأعلى ما يملك من قوة ذلك الشيخ القصير الذي سلّمنا المفاتيح عند مجيئنا، معلناً لنا أنه إذا لم تبادر بالخروج من الكنيسة فستُغلق أبوابها.

ورغم أن هذا التهديد لا أساس واقعياً له، فقد عجّلنا في نزولنا، حيث وجدنا أنفسنا بسرعة في الشارع، حيثما كان البواب مكشّر الوجه، وماداً من جديد يده معقوفة الأصابع، لنضع فيها قطعة نقدية بيضاء، ثم ننصرف نهائياً.

– قال لي فرنكور: هل ترى هذا البيت الصغير المجاور للكنيسة؟ إنه الغرفة الخلفية للمعبد.

ولمّا لاحظ استغرابي من قوله، واصل حديثه:

– نعم، إنهم قواسو الكنائس، الحجاب، البوابون، خدم الكنائس، موقدو الشموع العسلية، قارعو الأجراس، المنشدون، مؤجرو الكراسي، مقدمو الماء المبارك، الشماسون ومساعدو الشماسين، الإنجيليون.. إنهم جميعاً يعيشون هنا، أو كانوا قد مرّوا من هنا وهم يشكرون الله الذي منّ عليهم بدين فيه كل هذه المنافع.

- باسم كونفشيوس! قلت بأعلى صوتي: يبدو أنك تسخر من ديانة آبائك!

- لا تتعجب، إنه العرف.. العالم مليء بوثنيين معبّدين لا يعلنون دينهم إلا في المناسبات الكبرى.

الكثير من الناس الذين ينظر إليهم على أنهم متنورون، يعتقدون أن هذا الدين يقيد الروح ويوهنها بدلاً من أن يرقّيها. فهم لا يحرصون على إظهار التقوى أمام طبقتهم، ولكنهم يفعلون ذلك بحرصٍ كبيرٍ أمام عامة الناس، وخاصة المزارعين.. إنهم يدّعون بلا شكّ أن المهم ليس أن تكون للرجل الشريف ديانة، ولكن أن يظهر كذلك إذا اقتضت الظروف.

حدّثني فرنكور كثيراً حول هذا الموضوع، وهو يوازي بين مكانة الدين عند الإنسان، ومراحل حياة هذا الأخير ويدّعي أنه لا وجود لديانة أزلية، بل إن لكل ديانة بداية ونهاية، وأن الديانة التي تكون صالحة في عصر، تتجاوزها الأحداث في عصر آخر وهو يعتقد أن رقيّ الفكر الإنساني مشروط بتجاوز الديانة التي لا تقبل بالإصلاح.

للديانات عمر كما هي الحال بالنسبة لي ولك.. فهي في شبابها وعندما تكون قد خرجت للتوّ من مهدها، تكون جسورة، مجيدة، محمّسة وقادرة على العطاء الكبير، ثمّ إنها عندما تبلغ سنّ النضج، تصبح أكثر حرصاً على مكاسبها، وحذرة لا تهتمّ إلاّ بما يعنيها، كما أنها تصبح ماهرة بصفة جليّة. أما عند شيخوختها فإنها تصبح

مقتصدة، أنانية، وقليلة الودّ لا تفكّر كثيراً بالغير وتخسر الكثير من الأتباع. الديانات تقضي أعمارها مثلما يحيا الناس على وجه الأرض، إلا أنه كلّما تفطنت بعض العقول ذات المزاج المتقلب إلى شيخوخة الديانات اجتهدت الناس في إخمادها.

يُستنتج من هذا التحليل أنه إذا كشفت الإحصاءات الأخيرة عن وجود سبعة وثلاثين مليون مسيحي في فرنسا، فإن المرجع في ذلك هو سجلاّت التعبيد وليس ضمائر الناس. أظنّ أن بوسعي التأكيد، أن اللامبالاة مع الشعور السائد في الغرب.

XV – عـالـم اللئـام

والآن يا دكتور، لنغيّر مجرى الحديث، فالليل قد أقبل، والشوارع بدأ يكسوها الظلام، والمصانع أخذت تغلق أبوابها بينما بدأت الحانات تمتلئ. فعامّة الناس توقفوا عن العمل وبدأوا يفكّرون في اللهو. سأصطحبك إلى مقهى راقص، حيث يمكنك الخروج باستنتاجات عجيبة.

استُدرِجْتُ رغماً عنّي –كما يُقال– إلى زقاق صغير، رطب، ضيّق، ضعيف الإنارة ومحاط بمساكن عالية تطفو أسقفها على الطريق.

كانت هناك مجازات تنفتح إلى اليمين وإلى الشمال، فاسحة المجال لأشخاص ينزلقون على الأرضية بدل المشي عليها.

– هيّا بنا، بهدوء! قال ذلك فرنكور وهو يدفع بي في ممرّ مظلم.. تقدم إلى الأمام، ولا تبتعد البتة عن السور.. احْنِ رأسك فإن الزقاق الذي نمشي فيه لا يزيد ارتفاعه على أربع أقدام.. حذار من الدرجات.. إنها بالية مثل ضمائر الأشقياء الذين يسكنون هذا الماخور.. لقد تقدّمنا.. أبصرت سراجاً صغيراً يرسل دخانا في ركن، وبفضل الوميض الضعيف لهذا السراج استطعت الوصول إلى آخر الزقاق من دون مواجهة موانع. هناك انحنى بنا الممشى إلى اليسار وأصبح ضيّقاً إلى درجة أنني وجدت صعوبة في دخوله، ورغم أنني ضممت مرفقي إلى صدري، فقد شاهدت بعد مسافة خمس دقائق

قطعناها في صمت، نوراً يسطع من خلال زجاج مسودّ، وخلف هذا الزجاج كان هناك رجال يغنّون ويزعقون.

هناك ينبغي علينا أن ندخل.. هكذا قال لي فرنكور، الذي أضاف: لا تبتعد عني ولو ثانية واحدة، فالأمر يتعلق بحياتك. أنا أعرف النظام المطبق عند هذا الجمع الذي يعقد هذه الجلسات. لو تمّ التأكد من أنك دخيل عليهم لانتهى أمرك. اخفض قبّعتك فوق عينيك وارفع ربطة العنق إلى الذقن.. هيّا بنا، نحتاج إلى الثقة ورباطة الجأش. عند هذا الحدّ، ضغط فرنكور على زر صغير كان مندسّا في خدّ الباب، فانفتح المصراع ودخلنا.. كان هناك العديد من الموائد التي جلس إليها أناس كان مظهرهم نظيفاً، ولا يوحي النظر إليهم للوهلة الأولى بأي شيء خارق.

اندسسنا بسرعة داخل هذا الجمع، وتوجّهنا إلى ركن في القاعة.

– اجلس.. قال لي فرنكور. سوف اتخذ مكاناً قبالتك، وسيكون بإمكانك مشاهدة كلّ شيء من دون أن يعرفك أحد. هذا المقهى هو مقهى بيجن نوار.. بعبارة أخرى لقد أدخلتك إلى دائرة أناسٍ من الأفّاقين، منهم السارقون والمحكوم عليهم سابقاً، والمزورون، والقتلة.

ارتجفت لسماع هذه المدوّنة، وهممت بالهروب من هذا الغار الجهنّمي.

– قليلاً من الحدّة أيّها الدكتور المتحمّس.. هكذا توجه لي فرنكور

بقوله الذي نمّ عن طريقة فيها مودّة وقرابة، ثمّ واصل: لن تخرج من هنا وحدك، فوجودي إلى جانبك ضروري.. عند الدخول قمت بإشارة لسيّدة عجوز ضخمة البدن، تظهر عليها علامات الفجور. إذاً، فلا بدّ من إعادة الكرّة عند المغادرة، ولو سهوت عن هذا فستتعرض إلى خطر كبير، ومع ذلك فليس هناك ما تخشاه، وأنت في صحبتي. سيعتبروننا نشالَيْن وعليك أن تعرف أن الذئاب لا يأكل بعضها بعضاً.

عجباً، قال فرنكور وهو يجيل النظر في الحضور: أشاهد هنا اثني عشر رهطا من السارقين! فهذا الشخص الذي يعطي انطباعاً جيّداً جدّاً والذي يتحادث مع امرأة ذات مظهر معبّر، هو لعمري نشّال محنّك، وذاك الرجل ذو العينين الواسعتين، والكتفين اللتين تشبهان كتفي رياضي، هو قاتل وقاطع طريق، وهذا السيّد قصير القامة والذي يبدو متأنقاً هو نشّال، وهذه الشابة التي تبدو فاترة وذات أصابع سلكية كأنها إبر هي سالبة جيوب، وذاك الشخص ذو النظارتين الزرقاوين والجبين المنخفض هو غشّاش، وهذا الرجل الشاب ذو الشعر المرتّب بعناية هو غول فساد. لا يوجد بين هذا الحضور شخص لم تلاحقه العدالة؟ فهذا الرجل قضى عشرين سنة في السجن، وذاك قضى عشر سنوات أشغالاً شاقة، وهذه السيّدة ذات العينين الجميلتين خرجت للتوّ من الإصلاحية، وهذا السيّد الماجد عاش أكثر من اثنتي عشرة سنة على نفقة الدولة، وهكذا ترى بنفسك

كيف اختار الجمع أعضاءه.

– نعم الاختيار.. هكذا كان تعليقي وأنا أزيد في إلحاحي، من أجل أن يخرجني من هذه المغارة وفي أقرب وقت.

– بما أنك تأمر بذلك، فلننصرف، رغم أن هناك معلومات عجيبة يمكن أن تخرج بها من هذا المكان. فكتّابنا الكبار الذين يسعون إلى شدّ انتباه قرّائهم، لا يفرطون إلا نادراً في تصوير المواخير العفنة، مثل هذا المقهى. ثمّ إن الجمهور المتميّز الّذي يفترض ألا يشكّ في هذه الكتابات، يقبل عليها بجنونٍ بل يتخاطفها.

أحسست براحة بال، لما وجدتني خارج هذا المقهى الكريه. قلّما كان الزقاق الذي قادني فيه فرنكور جذّابا، فهو يتموّج كالشريط بين ضفتين من الأبنية المشوهة والعرجاء، إذا جاز التعبير. فهذا المنزل يبدو وكأنه على حافة الانهيار بعد أن اعوجّت جدرانه وذاك المبنى يهدد بناء مقابلاً له بالسقوط عليه، وهناك جدول يجري بماء أسود ينشر فوحاناً خانقاً.

– قال لي دليلي فرنكور بصوت واضح: هل وجدت أنّ النزهة التي قمنا بها غير مسلّية بما فيه الكفاية؟ صبراً، سأصحبك إلى مكان آخر حيث تجد مجالاً للتسلية.

XVI – الـطـلـبــة

بعد أن انقضت بعض الدقائق، دخلنا في ما يشبه الدرب.. ولجنا باب المدخل الرئيس ثم مررنا بحديقة صغيرة حيث نزلنا ثلاث أو أربع درجات لأجد نفسي في قاعة فيها نحو مائتين أو ثلاثمائة طالب يدخنون السجائر ويغنّون.

–في أيّ عالم أنا الآن يا فرنكور؟

– أنت في دائرة فرنسا الفتية.. هنا يتحدث الناس كثيراً عن الحرية، ولكهم يمارسون التهتك والخلاعة. هنا يُشاد كثيراً بالاستقلالية في الوقت نفسه الذي تخضع فيه لبعض الأهواء الفاسدة، هنا يمجّد السخاء ثمّ لا يفكّر الواحد إلاّ بنفسه.

– هل هؤلاء طلبة؟

– نعم، إنهم يتدارسون قليلاً، ولكنهم يتكلمون كثيراً.. وعلى الرغم من أننا نجد هنا عقولاً مميزة، وكفاءات راقية من الذكاء، وقلوباً متّقدة حماسة، إلا أن هناك أيضاً ضموراً للسبب الغالب، والذي يتمثل في حالة الفراغ والجري وراء الملذات.

الطلبة الجادّون، والأحرار الحقيقيون.. أي رجال المستقبل في الدولة، ليسوا في هذا المكان.. قد يقضون هنا بعض الوقت ولكنهم لا يمكثون أياماً، فالروح لا تقوى إلا بالعمل.

في هذه اللحظة، لمحت مجموعة من الشباب، كانت تحيط برجلٍ

استوى واقفاً فوق كرسي. ولما كنت نوعاً ما، بعيداً عن المشهد، فإنني لم أقدر على تمييز هذا الشخص الذي كان يومئ بيده خاطباً في الحشد. اقتربت من الجمع وكم كانت دهشتي كبيرة لما عرفت أن ذلك الشخص هو ساترابيل، الصديق الذي فارقنا بطريقة نوعاً ما غريبة، عندما ألقى بنفسه في البحر.

كان مظهر ساترابيل عادياً، ومميّزاً بما يلفت الانتباه. وكان صوته الجهوري يتردد في القاعة، وكأنه صوت بوق حربي.. كان عندما يمدّ يده نحو السماء يبدو وكأنه يستدعي جوقة من الشياطين، فأيه جرأة كانت لهذا الصديق، وأية فرادة في الفصاحة!

لم يكن بوسعي أن أفهم تماماً موضوع خطابه على افتراض أنه كان يعي ما يقول. فأنا لا أستطيع أن أحسم في الأمر. فقد لاحظت بصفة متكررة دائماً أن الخطباء الموهوبين جدّاً يتحدثون في كل شيء من دون أن تكون لهم دراية بالهدف الذي يسعون إليه، إذ يقال إن العاصفة تضرب بالمصادفة.

انتهت خطبة ساترابيل، وصفّق الطلبة بحرارة، فتقدمت لمصافحته، ومن دون تكلّف وكأننا أصدقاء منذ زمان طويل.. ارتمى ساترابيل بين ذراعيّ قائلاً بصوت مرتفع: أنا أتصرف على الطريقة الفرنسية، ليست لي طريقة أخرى أعانق بها من أحب مثلما أفعل الآن.

– قلت له بحماسة وودّ: عزيزي ساترابيل، تبدو لي رجلاً منسجماً مع نفسك، ولهذا السبب وحده أنا أقدرك. إن لك مبادئ قيمة، وأنا

أتلهف لمعرفتها منك، أجابني ساترابيل:

- هذه المبادئ هي مبادئ كل أصحاب القلوب الكبيرة. أنا أحب الحرية، والمجتمع الذكي لا يستطيع أن يحيا من دونها، فأنت عندما تصادر حريته، فإن أنبل توجهاته تنطفئ، وهذا يؤدّي إلى أن تغرس في عروقه الميول الهابطة والخسيسة، التي نجدها لدى الخدم والعبيد. قد أبدو لك موغلاً في الإطلاقية والراديكالية، ولكن لتكن متشبعاً بهذه الحقيقة: قد يستغني شعب عظيم عن الحرية، لكنه عندما يثوب إلى رشده سيسعى إلى نيلها بقوة تكاد لا تُقاوم.

كنت أستمع إلى هذه المرافعة، التي تعبر عن قناعة قديمة لدى ساترابيل، عندما هجمت عليه مجموعة متكونة من ثلاثين شاباً لترفعه على الأعناق بقوة كادت تخنق أنفاسه، ثم تطوف به في القاعة طواف النصر.. كانوا يهتفون بقوة تكاد تفلق الرؤوس: يحيا ساترابيل، يحيا ساترابيل.

وأنا أُدفع تارة إلى اليمين وتارة إلى الشمال.. كدت أُسحق لمرّة أو مرّتين، وقد كنت أشعر بألم في صدري وكادت رجلي تدمى.

وأنا أفكر بهذا المصير الذي انتهيت إليه، لاح لي زقاق فأسرعت نحوه، لا ألوي على شيء سوى أنني أشعر بفرح يغمرني، لأنني فررت من ذاك المكان الصاخب حيث تُعرّض حياة الناس للخطر بدعوى التعبير عن الفرح.

لم يتأخر فرنكور في الالتحاق بي. فقد كان يشعر بنوعٍ من الخجل

من سلوك مواطنيه، ولكنه استنجد ببلاغته ليقنعني بأنني وإن تعرضت لبعض المخاطر، فإن الجمع لم يكن يضمر لي السوء. وأضاف أن ذاك الاستقبال الترحيبي الكبير والتلقائي لرجل شديد الحماسة للحرية، يكشف عن شعور كان يخشى ألاّ يُسجّله أيام الشباب، وفي رأي فرنكور فإن ذلك التصرف من طرف الشباب هو طالع خير.

أستطيع أن أقرّر راضياً أن هؤلاء الشبان المتميّزين لا يريدون موتي، ولكنني بكل صراحة لا أرى فرقاً كبيراً بين أن يموت الشخص في حادث مروري عادي وبين أن يقع اغتياله.

أما عن الهتافات الغوغائية، فإنني أعيد ما كنت قد قلته: إنها لا تؤدي إلى شيء! وإذًا، فإذا أردتم أن تكرموا رجلاً مثل ساترابيل فارفعوه بهدوء فوق الأعالي، حيث يطول التعبير عن انتصاره أكثر مما لو حملتموه على أذرعكم!

XVII – الريف وساكنوه

في ذات صباح، ولما كانت السماء فيه بديعة المنظر، وكانت روائح أزهار الربيع العطرة تلج عليّ في غرفتي، لتشيع جوّ المرح والحب من حولي، وجدتني أشعر برغبة عارمة في أن أجوب الريف.. ذاك الريف البعيد وليس المحيط بضواحي باريس.. ذاك الريف الذي يزوّد الإنسان بأكثر منتجاته فائدة.

قلت لرفيقي الوفيّ؟

– أنا أختنق هنا، وأشعر برغبة جامحة في أن أتنفّس ملء صدري، وأن أتأمّل لون الخضرة التي تنمو، وأن أجيل نظري حول آفاق أنقى من هذه المباني المرصوفة كالحيطان.. أحب أن أرى مزارعيكم في الريف، وأن أنفذ إلى أعماق مشاعرهم.

– أنا تحت طلبك.. ففي فرنسا لا يوجد شيء أيسر من أن تسافر! بعد أربع ساعات من الآن، سيكون بإمكانك أن تستحم في ماء المحيط إذا رغبت، وفي أقل من ساعتين سوف يتمّ نقلنا إلى أحد مطامير الغلال في مدينة باريس الراقية.. أي في قلب بريو الأكثر غنى من الأرياف المجاورة.

– قلت: فلنبدأ إذاً بزيارة ريف بريو، ثم لنمرّ لمشاهدة البحر، وميناء شاربورق الشهير.

– أجاب رفيقي: بطيب خاطر، فأنا أعرف على وجه الدقة فلاّحاً

طيّباً سأكون سعيداً بمصافحته.. إنه رفيق الصبا، وهو يعد اليوم من الأغنياء أصحاب الملايين.

أردفنا القول بالفعل.. وما هي إلاّ بضع ساعات حتى أوصلنا القطار إلى مدينة صغيرة، شُيّدت وسط سهل شاسع لا شجر فيه أو ماء.. إنها حسب ما قيل لي إحدى الجهات المعروفة بزراعتها، إلاّ أنّ النظرة الأولى لا تدلّ على وجود هذه الخصوبة العجيبة. وهكذا فسيكون بوسعك عند عودتك إلى النزل أن تدون في يومياتك، عدداً من الملاحظات النادرة.

عمّا قليل سوف ندخل بيت الرجل البارز هنا.. أي رئيس بلدية المكان.

عند قدومنا وقف لنا الحضور، حيث حظي فرنكور باستقبال حارٍّ علته أصوات الفرح.. تعانق كل الحاضرين، وكان فرنكور يتصرف بانضباط ولم يَسهُ عن أحد.. قبّل في البداية سيّد البيت ثمّ سيّدة البيت فابنتهما الكبرى فالصبية الأربعة أو الخمسة للمزارع، وكذلك وعلى ما أظن، امرأة مرضعة كبيرة في السن كانت قد وضعت مسحوقاً بلون الآجر على وجهها حتى تبدو جذّابة.

كنت خلال هذا الوقت صامتاً، ومنشغلاً بتدوين انطباعاتي في مذكراتي حتى حان وقت تقديمي للحضور:

– هذا هو الدكتور الشهير! هكذا بدأ مرافقي حديثه ثمّ واصل: لقد جاء من اليابان لدراسة بلدنا بكل أمانة.. سيطلب منكم معلومات

حول ثقافتكم، وفي المقابل سيطلعكم على طريقة زراعة الأرز!

- آهٍ، ردّ الريفي ضاحكاً ضحكة كبيرة.. إذا كان السيد الدكتور قادماً من الهند الكبيرة فسوف لن يكون فلاحاً شهيراً، إذ إن جنودنا الذين يسافرون يكونون في ما بعد عمالاً فاشلين. أظن أنه لا يوجد إلا بلد واحد جميل في هذا العالم.. إنه بلدنا، لا أعرف ما يفعله الناس في اليابان، ولكنني على قناعة بأنهم لا يبذلون الجهد الذي نبذله. تقولون إنكم تزرعون الأرز في اليابان، ولكن ماذا تفعلون بالقمح؟ وأنت الذي ترى أن زراعة القمح مفيدة؟ ثم هل اليابان التي جئت منها تبعد عنا مثل الجزائر؟ وهل يوجد القمح بالمصادفة في هذا البلد الذي يسمونه أمريكا؟

لم أتمالك نفسي من الضحك. وأقرّ بأنني فوجئت بصفة غريبة بجهل هذا الرجل. فهل هناك من يجهل جغرافيا بلده إلى هذا الحدّ؟ إنّ أصغر تلميذ يبدو بإمكانه أن يتفوّق عِلماً على رئيس هذه المدينة الصغيرة الذي هو رئيس البلدية الثريّ.

كان هذا الشخص قصير القامة، وغليظ الطبع. كما كانت قسمات وجهه عابسة وكان منخفض الجبين، وخشن اليدين.. كان مظهره ينبئ بتواضع مستوى تفكيره. أما زوجته فقد بدت لي أكثر تعلماً منه، بينما كانت ابنته الشابة تتصرف بحياء، ويقال إنها متخرجة من دير حيث تلقّت تربية حسنة.

ثمّ إنني لم أشعر بإعجاب تجاه أي فرد من بقية العائلة. هناك اثنان

أو ثلاثة مشاغبين صغار، وهناك غوغائيون وأغبياء يسخرون مني من دون خجل. أحدهم تجرّأ على أن يَدُسّ في أحد كميّ سنبلة مؤذية وصلبة، كانت تتحرك على طول ذراعي، تارة إلى الأعلى وتارة إلى الأسفل مما تسبّب لي بعذاب كبير.

وبينما كنت ألعن هؤلاء المجرمين الصغار، فإذا بفرنكور يربّت على كتفي ليعلمني أن مضيفنا على استعداد ليعرفنا بحقوله، فاتّبعته.

دخلنا سهلاً نما فيه الزرع، وحتى أكون أميناً، أعترف بأن سنابل القمح بدت لي رائعة. فقد كانت تحدث تحت تأثير النسائم الناعمة، تموّجات لطيفة تمتدّ نحو الأفق.

إلا أنه وللأسف لم يكن في هذه الواحة الغنية بالخضرة شجر أو ملاذ. ورغبة منّي في اتّقاء حرّ الشمس، طلبت أن أزور مساكن الضيعة. وقد لاحظت انعدام هذه الحدائق الصغيرة، حول المباني التي نحيط بها في اليابان أكواخنا بشغف. وقد قمت بملاحظة ذلك لمضيّفي فكان له التعليق التالي:

– تحسّ بأن شمسنا تكدّر عليك راحتك؟ يا الله، فالشمس هي التي تدفع عنّا المحن، والشجر يقتل الأرض لأن ظله قاتل.

– قلت بصوتٍ عالٍ: ولكنكم تنسون أن صحة الناس هي أهم ثروة في الوجود، كما أن الأشجار هي غاية في الفائدة.. إنها تبتلع الغازات السيئة، وتنثر حول المنازل طراوة عذبة. إننا نقيم منازلنا في اليابان وسط حدائق من الخضرة، وهناك مماشي من شجر الكافور،

وشجر السماء، والليمون الهندي والتي تفضي إلى مساكن مزارعينا الذين وعلى الرغم من حبّهم للشمس، وتقديرهم لفوائدها، يتمنّون شيئاً من الظل لأنفسهم.

ثمّ إنّ المزارع واصل حديثه:

- أيّها السيّد الدكتور، أنت تتحدّث عن الشيء المفيد ولا تعرف غير ذلك، لكن لماذا تريدنا أن نخاف الشمس أكثر من خوفنا على سنابل قمحنا؟ فالأشجار تكون جميلة في الغابة، ولكنها تصبح مضرة خارجها، فنحن بخير كلّما كانت بحوزتنا الأموال.

خمّنت أن الحديث مع شخصٍ يجهل أبجديات علم الصحة غير مفيد، فلم ألحّ على مواصلته.

قلت بصوت مرتفع لفرنكور: هل رأيت هذا الفلاح الذي ينمّ مظهره عن تواضع ذكائه؟ لا يمكن أن يكون هو الرجل صاحب الفكر الثاقب الذي حدثتني عنه قبل قليل!

- عفوا! إن هذا المزارع البسيط قادر على إرباك أمهر الدبلوماسيين.. قد يبدو شاذ التفكير ولكنه دقيق للغاية.. تحدّث معه عن الحنطة أو أرض للبيع أو زوج من الثيران سيقع بيعه للجزار، تَرَ أن ذكاءه سوف ينشط أكثر مما يقدر عليه رجل أكاديمي. إنّه بالكاد يحسن الكتابة، ولكنه قادر على الحساب بصفة عجيبة، فهو ثعلب في غطاء جاموس. كما أن مظهره الذي لا ينمّ عن ذكاء هو نقطة قوّته.. إنّه بذلك يستطيع أن يربك المشترين.

ونحن هكذا، اعترضنا شخص يبدو عليه التواضع.. سأل رئيس البلدية عن أمرٍ إداري، ثمّ عرض عليه توقيع بعض السندات. وقد كان من اليسير لي بمكان أن أدرك أن هذا الشخص كان يبدو أكثر تعلماً، وبصفة لافتة من صديق فرنكور. وقد فاجأتني للوهلة الأولى الطريقة التي عومل بها والتي كانت تفتقر إلى الاحترام. وقد سارع فرنكور إلى تبرير ذلك بقوله: إن هذا الشخص هو بالكاد يكون مواطناً.. إنه لا يملك شيئاً، فكيف سيحظى بالاحترام؟

هنا يقع اختيار رئيس البلدية من بين أكبر دافعي الضرائب ثم إن حيازة مستوى من التعليم، غير مجدية بالنسبة للمهام التي توكل إليه والدليل بين أيدينا. فلنا في فرنسا 37 ألف بلدية، يسيّر ثلاثة أرباعها مزارعون جهلة تماماً، ومع ذلك فإن الأمور لا تتطور نحو الأسوأ.

– تريد أن تقول: إن الأمور ليست على ما يرام. في اليابان، كل رؤساء البلديات متعلمون. إن العلم يفتح آفاقاً جديدة أمام الناس، فمن يشكّ في هذا؟ إذا كان القائم على البلدية لا يعطي دفعاً نحو الرقي، فمن سيفعله عوضاً عنه؟

لم أعد أفهم إلى أين يمكن أن يفضي بنا مثل هذا الجدل، وخاصة عندما ألمح لنا مزارعنا برغبته في انصرافنا عندما أعلمنا بطريقة فظة أن له موعداً مع قصاب.

عدت إلى نفسي وقلت: آهٍ، أيها السادة الفرنسيون. من حقّكم أن

تتباهوا بحسن وفادتكم! لكن ليس لكم منها في الواقع إلاّ السراب. تعتبرون أنفسكم أكثر الشعوب استنارة. هذا وهم! فأنتم لا تزيدون على كونكم واحدة من أكثر الأمم جهلاً. إن مستواكم العلمي في تراجع لسبب وحيد أنه لا يواكب التقدم الذي تحرزه الشعوب الأخرى. ما الذي يعنيه التعليم عندكم؟ هل هو تعلم الحساب؟ هل يقرأ الناس في أريافكم؟ ربما نادراً. هل يسافرون؟ ربما أبداً! لتكونوا حذرين فسوف يقع تجاوزكم في القريب من طرف هذه الشعوب التي لا تزال تمجّد آدابكم وعلومكم!

إنّ عيبكم الكبير، يكمن في عدم اتصالكم بالعالم خارج بلدكم. أنتم تعتقدون أنكم بلغتم قمة الحضارة، عندما تشاهدون جنودكم المنتصرين يتفسحون حول الكون!لا! ولا! لتفتحوا أعينكم ولتنظروا إلى ما حولكم.

ففي كلّ ركن، تجرّس الأجيال الجديدة من حول العالم حتى تعود بعسل غزير إلى الخلية الأم. يستحوذ الناس على أفكاركم فيزاوجونها بأفكارٍ أخرى، ليحصلوا بعد ذلك على أكداس من المواد الصالحة لتشييد الصروح الكبيرة.

ليرسُ بعيداً، وخارج نطاق حدودكم، الآلاف من شبانكم.. سيصبحون في ما بعد مهندسين أو دكاترة أو فنانين أو فلاحين. وبعبارة أخرى سوف يصبحون مواطنين مفيدين، ينبغي أن يقوم بتسيير بلذَاتكم أناس مهتمون بمجد فرنسا الحقيقي أكثر من اهتمامهم

بمصالحهم الذاتية. وهكذا يمكنكم أن تحافظوا على سمعتكم ومكانتكم.

كانت هذه الأفكار تختلج في عقلي، وأنا أقصد محطة القطار بصحبة صديقي الحميم فرنكور.. وصلنا باريس في ذات المساء، وسنطلعكم غداً على بقية الحديث عن مغامراتي.

XIIX- ابتسام الحظ

آهٍ، يا كنفوشيوس! لو أن روحك الكبيرة كانت حاضرة معي اليوم، فأي فكرة سوف تحصل لها عن جنوني؟

هذا المساء وفي حدود الساعة الرابعة، كنت أسير بصحبة الصديق فرنكور في شارع شديد الازدحام، عندما سمعت ضجيج سيارة ارتدت عجلاتها الخفيفة فوق المبلط فحانت مني التفاتة، فإذا بي أرى من خلال شباك السيارة وجهاً مليحاً.. توقفت السيارة فتبادلت النظر مع صاحبة ذلك الوجه، ثم حصلت إيماءة باليد. وفي الحقيقة لم أكن واعيا بتطور مجرى الأمور، ولكن ما هي إلاّ دقيقة واحدة حتى وجدتني جالساً إلى جانب هذا الوجه الجميل الفاتن.

آهٍ، يا كنفوشيوس، لتغمض عينيك! كان الحوذي يضرب بصوته الأحصنة، وكانت العربة تحملني وقلبي يخفق وكأنني ابن الثامنة عشرة. ثمّ إننا صعدنا درجاً وكان يمشي أمامي شخص يكردح بساقين صغيرتين فيرشدني إلى الممر وقد صعدت ناسياً التعب، رغم أن من عادتي أن ألهث إذا قمت بمثل ذلك المجهود.. بوذا! رحمتك!

انفتح بابان ثم انغلقا، فأجلسوني على أريكة ناعمة، استلقيت عليها وكأنني في بيتي، ثم بدأت أدخّن النرجلية بصحبة السيدة الجميلة، التي كانت تتعرف إليّ وكلّها دلال.

ولما كان فرنكور لبيباً، فقد استطاع التعرف على الطريق، التي

سلكتها ولكن كيف تسنى له ذلك؟ لا أعرف، ولكنه فعلاً التحق بي في وقت نصبت فيه مائدة لثلاثة أشخاص، فتناولنا العشاء في جوّ مفعم بالفرح، أدّيت فيه بتلقائية نغماً شعبياً من فرنسا يبدأ بكلمات لم يستطع أحد أن يفسر لي معناها.. كنت أضحك وأدخن وأتسلّى... ومرت ساعات من دون أن أتنبه للوقت أو لنداء الضمير!

وبينما كنت أستعدّ للحصول على نصيب من القيلولة المحببة إلى نفسي، عندما دخل أحد الخدم على عجلٍ، ليعلم سيدته بأن موعد العرض المسرحي قد حان، قامت سيدته ثم استدارت وانسحبت إلى غرفة مجاورة لتدندن بأغنية.

صحت:

– ماذا تقول في هذا الذي تراه يا فرنكور؟

– هل صحيح أنك لم تكتشف الأمر؟ أنت في حضرة فنانة تملك في نظرتها وجمالها من الثروة ما لا يملكه رجال الآداب بعقولهم الكبيرة!

– إذاً، فأنا لست في حضرة مواطنة عادية!

– هذا رهن بالظروف.. الراقصة التي نحن عندها، يأتيها أكثر السادة كياسة: يأتيها الدوقة، والمركيزات والنبلاء والفرسان ورجال البنوك وكبار التجار وغيرهم من أصحاب النسب والأدب الرفيعين.

– إذاً، هؤلاء السادة يتعلمون هنا ما يعيدون تجربته لاحقاً مع

زوجاتهم.. أي قد يكون تتمة أو تربية إضافية لهم. إذ إن الشباب لا ينبغي لهم أن يفوّتوا فرص الحصول على المعارف العلمية للراقصات، ومع ذلك فإن الأولياء قبلوا بالأمر.

أعرف بعض هؤلاء الآباء المتسامحين، الذين يتولون بأنفسهم وبدافع الحذر، اختيار من يصلح لإفادة أبنائهم من بين هؤلاء الأساتذة!

– عجباً! وصلتم في فرنسا إلى هذا الحدّ من الانحلال؟ باسم بوذا، فإن كل اليابان من بوزيو إلى ليوكهيو لم تشهد مثل هذا النوع من الفضائح!

– سوف يحدث مثل هذا عندكم.. كن متأكّداً سوف نحضّرُكم.

– ولكن وعلى أقلّ تقدير، فإن الزوجات اللاتي سوف يرتبطن بهؤلاء الخيالة النبهاء، لن يقبلن بمثل هذه الدناءات. ماذا سيقلن؟

– إطلاقاً، لن يقلن شيئاً.. لقد امتزجت الظاهرة بالأخلاق والعادات.

– لا! لا!.. فرنكور.. أنت تسخر من جهلي بأعرافكم وأخلاقكم.

– إطلاقا! إن تسامح النساء في هذا المجال هو تسامح كامل إلى حدّ أنّهن لا يسألن عن السيرة الأخلاقية لأزواجهنّ. وعلى صعيد آخر فلا تعتقد أن النساء هنا يقدرن كثيراً قيمة الفضيلة، التي تراجعت إلى حدّ أن هناك العشرات من النساء اللاتي لا يشعرن بأي اشمئزاز

من أزواج ذوي تربية.. «حسنة»!

– قلت بصوت مرتفع وأنا شبه ثائر.. عزيزي فرنكور فلتنهِ الحديث.. أنت لا تزال تصرّ على أن تخيّب ظنّي.

إنك بتصرفك هذا تبدو وكأنّك تدوس على أقدس المبادئ عندي. وإضافة إلى ذلك فأنت تهينني.. أيّ عجوز مجنون كنت إذاً؟ كنت أظن أنني ظفرت بقصة إحدى المغامرات الروائية فإذا بك تصارحني بطريقة فظة وقاسية، بأنني كنت عند عاهرة مبتذلة، وكأن ذلك لم يكن كافياً. فبعد أن وضعت إصبعك على جراحنا الجنسية أردت أن تلقي بحجاب مظلم على طبائع النساء. سأصّر على الاعتقاد بأن هؤلاء الأتقياء الذين رأيتهم في الكثير من معابدكم، لا يزالون مهتمين بالأخلاق. لا أقتنع مطلقاً بأن نفوس النساء فاسدة إلى درجة أنهن يفضلن أزواجاً ذابت حياتهم في العربدة والملذات الفاسدة على شباب نزيه ومستقيم. لا ولا!

هناك على أقل تقدير في أعماق كل ضمير نصيب من التمسك بما هو عدل وشرف! إذاً! هذا الشعور لم يمت في قلوب هؤلاء النساء الشابات اللاتي عشن تحت السقف العائلي الهادئ، بعيداً عن الضجيج والصخب. لا، إن هذا الشعور النبيل لم يمت ولا ينبغي أن يموت!

– آهٍ، يا دكتور، لا ينبغي أن نتجادل أكثر حول هذا الموضوع. سوف ترى أشياء أخرى عديدة. ستتاح لك فرصة الدخول إلى

كواليس مسرح كبير فلتغتنمها. هذه الراقصة الهندية ستكون في غاية السعادة لو اصطحبتك إلى المسرح.. سوف يمثل ذلك بالنسبة إليها انتصاراً صغيراً! ماذا عساني أقول؟ سوف تمكّنها من جني أرباح معتبرة، وستجعلها امرأة ذات شهرة عالية، وربما تدخلها التاريخ، وستتخذ من رجل آداب مهم كاتبا لسيرتها الذاتية. وبفضل وجودك إلى جانبها، ستباع صورها مثلما تباع صور ماريشال أو أسقف أو وزير وستكون لها سيارتها الخاصة التي تغنيها عن عربة الأجرة، وستمتلك عوضاً عن هذا الأثاث، أثاثاً خاصاً بها! ألا تفهمني؟

– لا أفهمك مطلقاً!

– سوف تستمع إليّ عمّا قريب، وسأواصل حديثي إليك: قلت: إذاً ستتمّ الموافقة على زيارتك لكواليس المسرح بيسر كبير لو كان هناك وعد بأنك ستكون مصحوباً بالراقصة. ولتعلم أنه إذا فُتح قُبيل هذا الوقت باب السيارة لك، فإن ذلك لم يكن أيها الدكتور البريء تحت تأثير جاذبيتك الشخصية. لقد كان هناك بحث عن رجل ياباني ذي صيت واسع لا أكثر!

صدمت بهذا الكلام بصفة قاسية، فبقيت مذهولاً لبعض الوقت.

– إذاً! لقد سخروا من شيخوختي التي كانت تنقصها التجربة!

هذه السيدة الصغيرة ذات الابتسامة الساحرة عاملتني كطفلٍ!

كان هناك اهتمام بصفتي أجنبياً له صيت واسع وكفى!

وأنا في حالة هيجان، قمت من مكاني وتنقّلت في البيت بخطى

كبيرة.. كانت هناك مرآة رأيت فيها قسمات وجهي التي كانت مضحكة إلى درجة جعلتني أسخر من غيظي الأحمق. قبضت على يد فرنكور، وأقسمت له أنني تجاوزت عن كل شيء ووعدته بأن أكون من الآن أعمق فلسفة من الرحالة الفلاسفة!

XIX - الكواليس.. المسرح

مثلما توقع دليلي فرنكور، فقد كان في تخطيط الراقصة أن تصحبني إلى كواليس المسرح، إذ ينبغي أن أكون العاشق، وعنوان الدعاية لهذه الأميرة الجميلة. وقد وافقت على الأمر ممنّيا النفس بأن أسعى إلى فهم استراتيجية هذه المرأة الماكرة. ولكنني قبل أن أصل إلى هذه الغاية، كان يتوجب عليّ أن أخسر بعض القطع النقدية، التي تمّ ابتزازها مني بأسلوبٍ مراوغٍ، وسأترك لكُم الحكم.

وهذه هي قصتي النادرة:

كنّا على وشك الخروج، عندما تفطنت إلى أن صندوق سجائري أوشك أن ينضب، فطلبت من الخادمة أن تنزل إلى الدكان المجاور لتشتري لي حاجتي من السجائر. ولما كنت لا أرغب في الاستدانة من شخصٍ لا تربطني به معرفة سابقة، فقد سلمت الخادمة فرنكاً، قامت بوضعه في حافظة نقود كانت تحوي مبلغاً مهماً من المال وانطلقت مسرعة. وما هي إلا خمس دقائق حتى عادت الخادمة وعلامات الاضطراب بادية على وجهها كما أن عينيها كانتا تدمعان، وأعلمتني وهي تنتحب أن نشّالاً محتالاً اختلس منها كل أموالها. وقد كنت الشخص المغفّل في هذا الألم الكبير وتصرفت بطيبة عالية إلى حد أنني مددت قطعة من الذهب، ووضعتها في يد الفتاة! وقد كنت على وشك أن أضاعف الهبة، لولا أنّ فرنكور حذّرني بحركة أوحت لي

بأن حساسيتي لم تكن في محلها، فلم يكن هناك شكّ في أن السيدة وخادمتها تآمرتا على ابتزازي!

أمّا المرة الثانية التي تم ابتزازي فيها أيضاً فقد تكللت –وأسفاه– بالنجاح. فقد صعدنا السيارة وتسّلم السائق من يد مرافقتي الجميلة، عنوان محلّ للتجارة حيث يتعين على السيدة اقتناء بعض المشتريات المستعجلة. وبعد هنيهة توقفت السيارة أمام مغازة رائعة فنزلَتْ الراقصة برشاقة، حيث استقبلها صاحب المغازة بطريقة لائقة، وتجاوزت كسيّدة عظيمة، ممرات ضيّقة، أقيمت بين سورين من ثيابٍ احتوت على كل الألوان، ومن مكاني داخل السيارة كنت شاهداً على تحركها داخل هذه المتاهة الباذخة.

وبعد قليل رأيتها وهي عائدة إلى السيارة، ثمّ صاحت وقد بدا عليها الغيظ، وقالت: في الحقيقة إنه لأمر محزن أن أتعرض لمثل هذه الإهانة. فقد نسيت حافظة نقودي في البيت، ورفض صاحب المتجر تسليمي ثوباً.. أنا في حاجة ماسة إليه، لأنني سأقدم فيه عرض هذا المساء.. يجب الإقرار بأن هؤلاء التجار هم حقّا قليلو اللطافة مع النساء، ثمّ استدارت إلى جهتي وواصلت الكلام:

– ولكنك تستطيع أن تنقذ الموقف فتقرضني المبلغ المطلوب؟

– بكلّ تأكيد! أجبتها وقد كانت تلك أول حركة أقوم بها من باب الكرم معها.

آنذاك قرصني فرنكور بعنفٍ، ما جعلني أصيح من الألم، فأدركت

أنني كنت ضحية حيلة، ولكن التحذير جاء متأخراً. لقد تلفظت بالموافقة على طلبها مثل عصفور، إذا خرج من القفص لن يعود مهما دعوته. كان عليّ إذاً تنفيذ الطلب فأقرضت الراقصة أو بالأصح تم ابتزاز عشر قطع من ذهبي. ذهبت، وكأن سيلاً جارفاً قد ابتلعها. وأيقنت بأن غير الراشدين، الذين يسمحون لنساء من معدن المرأة الراقصة التي تعرفت إليها بإغرائهم هم أهل للشفقة، أكثر من أولئك البائسين الذين يقع السطو عليهم من طرف قطاع الطرق.

وصلت إلى باب المسرح، حيث بدت رفيقتي المتألقة، مزهوة بسحرها وزينتها، فتبعتها في ممرات لا تحصى، كانت إنارتها ضعيفة إلى أن وصلت إلى قاعة صغيرة أُطلق عليها اسم بيت الفنانين.

بادرني فرنكور بالقول: إن وجودك هنا لمدة ساعتين سوف يمكّنك من أن تتعرف على عالم المسرح بطريقة أجدى من لو أنك درست لمدة عشرين سنة الفهرس القديم والجديد، كما سيكون بإمكانك التعرف على أسرار الأدب المعاصر. ففي كل ليلة يلتقي الفنانون حديثو العهد بالشهرة في هذه البناية. هنا يتصافحون بحرارة قبل أن يتنازعوا. وإذا انعدمت الرغبة في التواصل وهو ما لا يمكن أن يحصل فسوف يقام المأتم الكبير هنا. هنا يحسد الجميعُ الجميعَ.. تحسد الممثلة الراقصة، ويحسد الممثل الصامت الشخص الثانوي في المسرحية الذي بدوره يحسد الشاب المُجلّى الذي يحسد الخائن الذي يحسد أيضاً الشخص المضحك، كما يحسد المؤلف الملحن

الذي بدوره يحسد مدير المسرح.

ولو سقطت باقة زهورٍ من شرفة مغنية، لبثّت الرعب في قلوب هذه الكتيبة من المغنّين. وبالمقابل لو تمّ التعبير بالصفير عن سخط على ممثل معروف لعمّ الفرح كافّة أصدقائه.

آهٍ، إننا بحق في مسرح الواقع! إنه العالم مُنَمْنَماً!

إنها الرغبة، الخيانة، الجبن، الإهانات الصغيرة، والطعنات بالخنجر.. إنهم ممثلون، ودائما ممثلون، فليست هناك صداقة ومع ذلك سأترك الحكم لكم.

خلال هذا الخطاب، كانت الراقصة التي اصطحبتها تتحدث مع رفيقاتها. وبطبيعة الحال، فقد كانت تحدثهن عن مظاهر كرمي والثروة الكبيرة التي سوف تجنيها من أمير من فشْلي.. إنها تلعب دوراً من الواقع وهو دور مُريح لكثيرٍ من الممثلات يفوق ربحه ما يجنينه من أدوارهن على الركح.

يقول لي فرنكور: لتلاحظ مدى اللامبالاة والتحفظ لدى المارة، عندما ينظرون إليك.. الممثلون والكتاب بلغ بهم القرف من كل أنواع التسلية إلى حدّ أنّهم لم يعودوا يفكرون إلاّ بأنفسهم. لا شغف لهم إلاّ بأنفسهم.. إنهم في الحقيقة يهتمون بتأنق عقولهم أكثر من اهتمام السيدات بوجوههن!

إن أهم أهدافهم هو أن يبدوا روحانيين، وأن يرشقوا بديهية وأن يحصلوا على شهرة، أما الوسائل فلا يهمّ أمرها.

هل تم يوماً ما، التفكير في مناقشة انتصار حصل؟ إنهم يرددون دائماً تلك الكلمة الشهيرة التي يرجع عهدها إلى العصور القديمة: «البؤس للمهزومين، والمجد للمنتصرين».

واحسرتاه عزيزي الدكتور.. في السابق كنا نطيع بحماسة المقدس، أما الآن فإننا نجتهد لإخماده، لأن– وهذا ما ينبغي عليك معرفته – الموهبة هي أحد أمراض عصرنا.. إنها تقتل العبقرية. فالفن الذي كان إلهاماً جعل منه أصحابه مهنة، وفي الآداب والرسم والموسيقى لا أرى إلا أناساً فطنين، وعمالا بارعين، ومهنيين يدويين حاذقين.

لاحظ المكانة الكبيرة التي يحظى بها أصحاب المواهب على حساب أصحاب العبقرية. فأصحاب الصنف الأول يُفهمون من طرف معاصريهم في وجودهم، بينما لا يحصل الصنف الثاني على الاعتراف إلا نادراً وفي وقت متأخر.

أصحاب المواهب، يعرفون كيف يستثمرون ميولاتِ اللحظة الراهنة، بينما يكون أصحاب العبقرية قد سبقوا عصرهم، ولكنهم لا يحصلون على إعجابٍ حقيقيّ إلا متأخّرا.

فالموهبة، في كل مكان سبب في الدلال والتزلف، بينما يخشى الناس العبقرية التي تفتنهم، والموهبة والعبقرية مثل قط وأسد! فالرجل العبقري هو وجوباً متقلب.. قد يكون اليوم في قمة فنّه ثم يصبح غداً في أسفل الدرج.. تُخشى مداركه وكلّما بدا عليه الوهن، سُحِق، كما أن صاحب الموهبة لا يخشى الحقد والشراسة. قد تقع مضايقته،

وقد تُخدش كرامته، ولكن الجميع يلهث وراء أمجاده. قد يسايره الناس، لأنه يعيش وسط عناوين الشرف والثروة والرخاء، بينما يُحتقر صاحب العبقرية الذي هو ضحية النار التي تلتهمه.

ما الذي يفعله كتابنا وفنّانونا؟ كأناس حكماء، إنهم يفضّلون مكاسب الحاضر على وعود المستقبل.. إنهم يكبتون المشاعر الحماسية عندهم والمستعدة للانبثاق، ويحترسون من أن يفسحوا الدرب أمام خيالهم الذي يمكن أن يحطمهم.. إنهم لا يؤدون إلا مهنة: يتجمعون في دائرة ضيقة، يسطون فيها مهارة متناهية، ويغالبون الصعاب كأنهم بهلوانيون في سيرك ويصلون بقفزة واحدة إلى الشهرة التي تعني الآن، السمعة الحسنة.

استعدت الحديث قائلاً: صديقي فرنكور، أنت تتكلم بإسهاب كبير، وكأنك مدرّس في فصل.. تنطلق من مبدأ قد تكون الوحيد المؤمن به، ثم تستعين بطلاقة لسانك لتصل إلى الاستنتاجات التي ترغب في إقرارها. أعتقد أن الناس هم الذين يصنعون عصرهم، مثلما تصنع العُصور أيضاً رجالها. فإذا لم تكن صاحب نجاحات كبيرة فلا ينبغي توجيه الاتهام إلى الدهر ولكن إلى نفسك، فالطبيعة جميلة دائماً، وكذلك نقاء السماء. كما أن المشاعر الكريمة لا تزال تحرك الجماهير، فقلبك إذاً هو الذي تغيّر. لقد أفناكم اللهاث وراء المصالح الآنية. لو كان حبّكم للمال أقل قليلاً من هذا الجنون، لكان لكم قدر من العبقرية أيضاً.

ويعود فرنكور ليعلن التمسك بآرائه: آه! ذاك الرجل الذي تراه هو بالضبط خير من يمثل الذين قضوا على العبقرية. فهذا السيد الصغير جدّاً في السن والذي أصبح شهيراً، هو فنّان مسرحي من الدرجة الأولى.. إنه ينتج المسرحية مثلما يصنع الرخامي مدفأة أو النجار طاولة. يكفي أن يحصل على فكرة حتى ينتج مسرحية كوميدية ممتعة. ثم إنه يستعمل الوسائل نفسها والأثاث نفسه الذي استعمله في المسرحيات السابقة.. لا يبتكر شيئاً إطلاقاً.. قد ترى هناك شيئاً نشازاً، وهنا شيئاً مقعّراً، ولكن الكل مصقول بإعجاب، ومبرنق بصفة بديعة. سوف تجذبك السلعة وسوف تشتري، مع أنّك في الغالب قد تكون خُدعت فاشتريت متاعاً بالياً استُعمل خمس أو ستّ مرّات.

ثم واصل فرنكور: هل ترى هناك ذاك الشخص الذي يذكّر مظهره بقائد كتيبة؟ حسناً إذاً! إنه فعلاً قائد كتيبة الفنانين المسرحيين.. إنه يحتكر نصف مسارح باريس التي لا يدخلها الناس إلا برضاه وهو يأخذ رسوماً مثلما تأخذ إدارة المستشفيات رسوماً، ومع تواتر السنين يربح 200 ألف من الفرنكات».

– قلت فوراً: آهٍ! فرنكور.. ليس من حقك الطعن في استحقاق هذا الرجل!

– لعمري يا دكتور إنه مصنّع، ولن أقول عنه أكثر.. إنه يعرض منتوجات صناعته وعمّاله. فالميداليات والملاحظات المستحسنة

والصليب تأتيه تقريباً عن طواعية.

– قلت: وهذا الرجل الضخم، المعتد بنفسه والذي يجول بنظره الساخر حول الجمع؟

– آهٍ.. ذاك الرجل، إنه كاتب دقيق جدّاً.. إنه يراجع علوم البيان منذ نحو أربعين سنة، ويقوّم الأعمال الفنية بحيادية مشهود لها.. إنه يبري قلمه كل يوم اثنين من دون أن يعرف هل سيستعمله للتهديد أم للتظاهر باللطف، وهو يعرف الكثير ويفوق في علمه معظم الكتاب المعاصرين له. لذلك فهو يرفض الدخول في جمعية قوية روحانياً، ولكنه يبدي خشيته من أصحاب الفكر.

– ثم واصلت أسئلتي: وهذه السيدة التي تبدو وكأن التقدير الذي تحظى به لا يعكس احتراماً حقيقياً لها؟

– هذه السيدة أكثر من كاتبة متميّزة. إنها صاحبة فكرٍ كبيرٍ.. يتجمع حولها اليوم جمع من رجال الأدب والفنانين والعلماء نحل أوزنابير، وغشاشو هذا الزمن الذين ربما –واحسرتاه– لا يلبثون أن يقدحوا فيها من الغد.

وقريباً جدّاً وقف ثلاثة أو أربعة أدباء شبان، كانت تبدو على أحدهم علامات الذكاء اللافت جداً.. تفحّص عن قرب مظهره المخادع الباعث على التهكّم، وابتسامته الرقيقة الساخرة.. ربما يكون أحد الكتاب الأكثر موهبة في فرنسا المعاصرة.. إنه صحافي وروائي وفيلسوف وكاتب مسرحي، وفوق كل ذلك كاتب هجائي..

إنه يمثل القرن الثامن عشر الساخر والمتشكك، والذي تاه في القرن التاسع عشر. وعن مسافة قريبة هل تشاهد ذلك الرجل الذي يبدو لامباليا بشيء؟ لقد ولد وهو يحمل اسماً كبيراً في الأدب، ونمت ثروته بسرعة.. كانت موهبته تتمثل في نحت عالم لا يرغب الناس المحترمون في دراسته، وفقاً لحالته الطبيعية. يتسابق الناس لمشاهدة مسرحياته التي هي عبارة عن عروض مشكوك في أخلاقياتها. كما يتابع الناس بدافع الجري وراء الاطلاع على فضائح مغامرات النساء الوقحات اللاتي يتولى تقديمهن على خشبة المسرح، ويهتف لانتصارات أناسٍ فاسدينٍ، يكون هو المؤرخ الوفي لسيرتهم!

– قلت: ما تقوله حول هذه الموضوعات يا فرنكور يحيرني ويربكني. فالكتب التي في حوزتي حول عادات بلدكم، تُؤكّد لي أن المسرح عندكم هو مدرسة للأخلاق الحسنة.

– كان ذلك في زمانٍ ولّى.. اليوم لم يعد المسرح كذلك.

– لا! لا! قلت بصوت مرتفع.. لا أحب أن أصدّق أن شعباً مثل شعبكم يدعي أنه بلغ قمة الحضارة لا يحترس ضد التأثير المضر لأفكار سيئة ينشرها المسرح في عقول جاهلة. ما أنا إلا فيلسوف ياباني بائس أصدر أحكامي عن ضميري أكثر مما أعمل عقلي. إلا أن ضميري يدين بشدّة عروض الدناءة الحزينة. لا يجب أن تظهروا إعجاباً بالمذنبين، بل تجب معاقبتهم. إنّ نقاط ضعف القلب من السهل الوصول إليها فللعيب قدرة مدوخة على الجاذبية. لا! لا..

وأكرّر النفي! ما تقوله لا يُقبل!

– استعاد فرنكور الحديث ضاحكاً وقال: عزيزي الأستاذ، للمرة الثالثة تتهمني بالمبالغة، وها أنا أجيبك: سوف أصحبك إلى مسرح شعبي لترى أية دروس تُعطى فيه. قبلت الفكرة وكنّا سعيدين بالابتعاد عن ملاحقاًت الراقصة، فخرجنا ولم نلبث أن أخذنا مقاعدنا على كراسي نُصبت أمام خشبة مسرح عريضة بما يكفي.

جلسنا في الجانب الأسفل للقاعة، وكنت أتساءل عن سبب اختيار هذا المكان عندما سمعت ثلاث دقات وبدأت الجوقة في عزف واحدة من أصخب السمفونيات.

لم يكن لقائد الجوقة من الآلات الموسيقية إلا كمان.. كان الرجل البائس يهيج كقرد مكبّل محشوّ شوكاً وهو على منضدة! وفجأة ارتفع الستار الخلفي للمسرح من الجانب الأعلى في القاعة، فإذا بنا أمام ركح فسيح وكأنه في غابة. وعلى ذلك الركح شاهدنا رجلاً شديد السمرة.. أسود اللحية، ويحمل في حزامه ترسانة موت.. يقترب من الصف الأول للأنوار، وبصوت أجشّ يتحدث إلى نفسه مشيراً إلى الجمهور بصرّة من الذهب قائلاً:

– الثروة، الثروة.. آه! وأخيراً.. ابتسم لي الحظ. ويواصل: سوف آخذك معي، آهٍ يا حبيبتي.. لن تفارقيني أبداً. لقد ولدت لأعيش غنيّاً.. أنا أحب الملذات والنساء والراحة.. لو كانت لي ثروة هل كنت فكّرت في الشرّ؟ هل كنت سأنتظر على الطريق والمسدس في

يدي، عربات الجياد لأسطو عليها؟ لا، لا، وألف مرة لا! كذلك فأنا صاحب ضمير، بل إنني رجل طيّب للغاية. وإذا كانت يداي ملطختين بالدماء، وإذا كنت قد قتلت خمسة عشر شخصاً، فلا يذهبنّ بكم الاعتقاد إلى أنني رجل مجرم، الآن وقد أصبح لديّ الذهب لن أقتل ذبابة!

بعد هذا التقديم، أخذ الرجل المتميّز ثياب سيّد كان قد قتله وألقى خزانة ثيابه في صندوق، ثمّ ظهر للجمهور بلباس مزخرف بالأوسمة، ومزيّن بالشرائط من الرأس إلى أقصى الأطراف، وهو كذلك فقد كان يتفسح على الركح.بمرح كمرح سيّد صغير ولكن كسيّد مكتمل.

كنت تسمع همساً بالرضا لدى الجمهور، وكانت ردهة المسرح تهتف بهياج، ثمّ عاد ذلك الشخص الذي تقمص شخصية سيّد للحديث بصوت عالٍ قائلاً: في الحقيقة أنا وجدت لأكون أميراً! فهذا اللباس يناسبني إلى الحد الذي يخلب الألباب. يتعين عليّ الآن أن أتزوج في فخامة وأن أكون المبجل في العمل... وسأحقق ذلك. صحيح أنني لم أتلق أي تعليم ولكنّ لديّ الثروة وهذا يكفي! وانتهى الدور على هذه الكلمات.

في ذلك الحين، نقلنا إلى قاعة استقبال فخمة، حيث كانت نسوة من رفيعات الأدب يتحادثن عن فكر وروعة ولطافة رجل شريف النسب، وصل منذ مدّة قليلة إلى البلاد ولا حديث إلا عن خصاله وفضائله.

فُتحت الأبواب، وأُعلن عن قدوم الدوق ألمنزور. وأعترف بأنني فوجئت نسبياً بأنني قد استطعت أن أتعرف على قاطع الطريق الذي سبق الحديث عنه، والذي يبدو أنه ترقّى اجتماعياً وبسرعة كبيرة. ومباشرة بدأ بينه وبين العديد من الأميرات حوارٌ حادٌ، سأوفّر عليكم طوله، فقد كان على الأرجح حواراً روحانياً جدّاً، وأنا متعجل لأحكي لكم نهاية هذه القصة النادرة.

إذاً، فإن قاطع الطريق سابقاً، وقع اختياره على شابة بكر، وعلى الفور زُوِّجت له، ثم إننا أمضينا قرابة عشر دقائق في الانتظار ثم استؤنف العرض.

وعند رفع الستار، كان الدوق النزيه قد استقرّ في بيت مشرق بين رفيقته وأربعة أو ستة أطفال ذوي بشرة شقراء. كان الخدم يحيونه بما يليق بالملوك، وكان الأعيان الأقوياء يتحدثون إليه باحترام. كان الدوق ألمنزور في كامل السعادة، لأن هناك أخباراً تروّج حول تعيينه قريباً صاحب سموّ لدى الوزير الأول. ونحن هكذا، وإذا بنا نسمع جلبة فارس.. إنه رسول الملك.. كان يمشي بخطى ثابتة في اتجاه الدوق.. سلّمه رسالة من الملك الذي أثنى فيها على فضائل الدوق النادرة وعلى ذكائه منقطع النظير، ثم أعلن عن تعيينه وزيراً وسط هتافات الضيوف والجمهور.

تمّت قراءة هذه الرسالة، بصوتٍ مرتفع، وكانت حميمية وكانت السعادة عامة. أما الرسول الذي كان جاثياً على ركبته فوق الركح،

فقد قام ثم نظر بدهشة إلى الدوق وصاح: أيها البائس! ثمّ واصل وهو يقفز نحو عنقه: لقد قتلت أمّي. وأمام هذا المشهد لكم أن تحكموا على مفعول ما حصل على الجمهور!

كان الدوق آنذاك شاحباً جدّاً، ولكنه لم يفقد رباطة جأشه، بل ردّ كالبطل، وقد قيل إنه قتل بيده أربعين عدوّا. ومكافأة له على هذه الأعمال الجديرة بالاحترام لم يتردد الملك في تعيينه قائداً للجيش. عند ذلك يأتي رسول الملك الصغير ويصيح من جديد بلهجة مأساوية: يا قاتل أمّي! إنّها جريمة تتطلب انتقاماً! الانتقام!.

كان رسول الملك، قد بدأ يومئ عندما تقدم الدوق ليقول لأصدقائه وعلامات الحزن بادية عليه:

– حسناً إذاً! نعم لديّ اعتراف سأقدّمه لكم: أنا لست الدوق المنزور.. وبكل بساطة، أنا ابن هذا الشعب واسمي بيدرو، وكان أخي شقيّا.. كان يشبهني كثيراً إلى الحد الذي يخطئنا فيه الناس. إنه هو وحده الذي قتل والدة هذا الرجل.. أنا بريء وروحي بريئة! والآن بإمكانكم إدانتي وليحلّ عليّ غضبكم.

هنا ينحني رسول الملك، متوسّلا عفو القائد العام، فيقف الدوق ويعينه حالاً مساعده الأول في المعسكر وينتهي المشهد على أذرع تتطوق بحنوّ ومودّة! لا، بل نسيت: فابنة المنزور تتزوجه في آخر المشهد!

وعلى هذا المشهد انسحب الجمهور مبتهجاً بهذا العرض

الجميل.. بادرني فرنكور:

– حسناً إذاً! ماذا تقول في هذه الأخلاقيات؟

– ليس لدي ما أقوله فكل شيء كان غير أخلاقي. أن يصبح قاطع الطريق سيّدنا فهذا هو الفسق بعينه.. وأن يكون هذا السيد العظيم الابن المدلّل للثروة فهذا أيضاً فسق! وهذا الاعتراف غير المكتمل هو أيضاً فسق! وتعيين هذا الشخص مساعداً لرئيس معسكر والذي قوبل بصمت الجمهور هو كذلك فسق، وكذلك أيضاً هذا الزواج الذي توّج العمل كلّه هو أيضاً غير أخلاقي.

– ولكن ماذا عساك تقول لو سُمح لي باطلاعك على مسرحيات «خرطوشة» و«فرسان الضباب» و«ابن الليل» وهي ثلاث مسرحيات كانت قد لاقت نجاحاً قياسياً، ويتعلم من خلالها المشاهد كيف يسرق ويقتل الناس؟

قلت لفرنكور: سوف أقول عندئذ وبكل بساطة.. إن المسرح في باريس هو مدرسة الشياطين.

XX – أخبـار متفرقـة حـول فرنســا

عند عودتي إلى بيتي، وجدت رسالة جديدة من الدكتور طسوتسيما. للعلماء عناد كبير.. عليّ الآن أن أقلق نفسي، لأنني مطالب بأن أبوح لمؤرخ اليابان الكبير بأفكاري الفريدة حول الطبائع الفرنسية.

إنه دائماً تمرين محفوف بالمخاطر، أن ينصّب الإنسان نفسه كاتباً أخلاقياً أي رقيبا على الناس.

لا نستطيع إرضاء أي أحد.. سوف يحكم عليك بعض الناس بأنك كنت قاسياً جدّاً، ويحكم عليك بعضهم الآخر بأنك كنت متسامحاً جدّاً!

ومع كل هذا، فالرحالة الذين يزورون شرقنا، لا يشعرون قط بمثل هذه الحيرة.. إنهم يجادلون بصوت عال حول أمور ربما لم يشاهدوها. أما أنا فقد شاهدت أشياء، فأنا أتكلم بكل حرية ضمير وأعطي انطباعاتي بصراحة. وإذا كانت طريقتي في تسجيل الأحداث مختلفة عن طريقتكم.. أيها القراء الأعزاء، وإذا قررتم إدانتي فإنني أرجو منكم أن تتوجهوا إلى خمسة أو ستة من جيرانكم، وأن تطرحوا عليهم مثل هذا السؤال البسيط: ما الوقت المفضل لديكم .

سوف يجيبك قوطو بأنه يحبذ الطقس البارد، بينما يحب صاكاي الجوّ الحار، وأما فيراتو فإنه يحب المطر كما أن وريوناي

يحبذ الضباب ...إلخ

لهذا فاسمح لي بأن أعبر طوعاً عن طريقتي في التفكير، ولك الحرية في أن ترى أنت الأمور على وجه آخر. قد أحب أنا الجو الحار، بينما تفضل أنت الطقس البارد، فلنتصافح كما يتصافح أحسن الأصدقاء.

والحال هذه، هذا هو جوابي أو بالأحرى بداية الرسالة التي سأبعث بها إلى طسوتسيما:

أيّها الدكتور الموقر: كنت قد حدثتك عن تاريخ وحتى عن سياسة الأوروبيين. لو أن رسالتي السابقة استطاعت أن تصلك في ذلك الوقت عن طريق اللسان الصامت لهؤلاء الأبناء المتميزين والمتشبعين بأفكار الغربيين، لكنت قد أجبتني منذ زمانٍ، وعن طريق الوسيلة نفسها بأن مراجعي حول هذا الموضوع كانت أكثر من كافية.

«سوف أوجز مع ذلك أفكاري حول الفرنسيين: «إنهم يكوّنون أمة كبيرة وجميلة وهي ليست أكثر تخلفاً ولا أكثر تحضراً من أمّتنا».

إنهم أصحاب مبادئ نبيلة.. يرفعون من مستوى الناس الضعفاء، ويضعون من قيمة المستبدين.. يفعلون الخير ويصدّقون الشر ويسودون العالم بالعدل والإحسان.

لست متأكّداً جدّاً من أن هذه العقيدة الرائعة، تجد طريقاً للتطبيق الأمين، ولكن ما أعرفه هو أن قلب فرنسا يرتعش عند سماع خبر موجع، وأن كل البلد يرتعد من الرعب عند سماع خبر مخجل، وأن صرخة سخط ترفع من كل جانب ضد كل شعب يخضع بلاداً خصبة

من دون مراعاة لقوانين الإنسانية.

الشعب الفرنسي يكره المغالاة في استغلال القوة ولكنه في بعض الحالات وفي تناقض غريب، قد يكون أول من يفعل ذلك.

أما أهم عيوب الشعب الفرنسي فإنها الكبرياء من جهة، وعقلية التحقير المقيتة من جهة أخرى.

تدفع الكبرياء، الشعب الفرنسي إلى وضع الفضائل بجندوية في المرتبة الأولى.. يعرف أنه ينبغي أن تكون له انتصارات فيعمل على كسبها، ولذلك فإنه يعتقد أنه قد بلغ درجة من العظمة والتفوق تجعله لا يسعى إلى أن يصبح كبيراً...

وأما عقلية تحقير الغير لديه، والتي ترجع بلا شك إلى ميزاته اللامعة في الذكاء فإنها سوف تعطل بصفة خاصة تقدمه نحو الرقي.

«النقد النزيه يثير العبقرية. أما السخرية فإنها تخيّبها.. فالاحتقار حسب رأيي عقيم».

كنت أنوي مواصلة كتابة هذه الرسالة، عندما دخل عليّ مسرعاً الصديق فرنكور، وكان مظهره يدل على الفرح والقلق في آن معاً.

قال لي بزلاقة لسان: يجب أن أفارقك. ففي هذه الساعة ورث ساترابيل ثروة هائلة، وسيستأنف مسار رحلاته هذه المرة كسيّد. وقد أُعجب بخصالي وسأصبح مديراً لأعماله.. سنغادر بعد عشر دقائق. لقد أغلقت حقائبنا والسيارة تنتظر في الأسفل وركابها لا ينتظرون إلا التحاقي بهم.. وداعاً. سوف أتذكّر دوماً رقّتك وحسن التفاتتك.

نحن على عجلٍ كبير.. سيكون علينا أن نجوب العالم! مرّة أخرى وداعاً! وداعا، من أعماق القلب. أنا عاقد العزم على المجيء إلى بيدو لمصافحتك!

وهو هكذا يتحدث، ارتمى في أحضاني مقبلاً وجنتيّ بأخوّة، وشادّاً بقوة على يدي التي كادت تنكسر، ثمّ استأذن في الذهاب وانطلق من دون أن ينتظر جوابي!

هذا الفراق غير المنتظر لفرنكور، تركني حسب ما يقال منهكاً، ومع ذلك فقد كان لابد من قبول الأمر الواقع، والبحث عن رفيق جديد يكون دليلي في فرنسا.

كانت حيرتي كبيرة. ففرنكور رغم ميله إلى الهجاء كان بعيد النظر.. استطعت بفضل إعانته لي أن أنفذ إلى قلب الأشياء.. لا أعرف هل ستتوافر لمترجم آخر تجربته وفطنته ومهارته؟ لقد كنت أخشى أن أخسر الصفقة! في النهاية وبعد مساعٍ عديدة عثرت على رجل يبدو عليه التميّز الكبير. لقد ولد في هولندا، ولكنه يتكلم الفرنسية بطلاقة.. لم يكن مظهره جذاباً تماماً ولكنه لم يكن منفّراً أيضاً. بدت لي ردوده السريعة حصيفة، وأتمنّى أن أكون قادراً على مواصلة دراستي برفقته.

XXI - نهايـة يوميــات «كوان فو»

ذهبنا بالأمس لزيارة فرنسي يدعى مارسيل كومباس، هذا الشاب المحترم والطامح إلى إدراك ذوق شرقي عالٍ، أقام لي حفل استقبال فريداً. فأبحاثه الذواقية وفّرت لي بصفة خاصة، قدراً كبيراً من التسلية.

آهٍ! لو أن هؤلاء الأجانب الممتازين يطلعون على ما أكنّه لهم. فكم سيبلغ عدد المرات التي ستحمرّ وجوههم فيها وهم يكتشفون المكانة التي يحظون بها لديّ؟

كان هناك أديب شاب قد بدأ يتمتّع حسب ما يقال بنوع من الشهرة. وأُقرّ بأن لا أحد يعرف اسمه في اليابان.. بدت هيئته قلقة وكانت في نظرته صرامة غريبة.. كان يبتسم على ما أظنّ من شطط رفيقه.. تحادثت معه لبضع دقائق.. لم يكن العالم الآسيوي غريباً عليه، بل لقد ذكر لي أغلب مدننا، إلا أنه كان يتكلم اليابانية بطريقة بغيضة.. إنه أمر مرعب.

بكلّ تأكيد، لم أزدد إلاّ أسفاً على فراق دليلي السابق فرنكور. فمنذ افتراقنا لم أطّلع على شيء. قد يكون دليلي الجديد علاّمة كبيراً، ولكنه متوسّط الذكاء بل أحمق.

سابريستي! هكذا صاح المترجم وهو يغلق برعب المخطوط. سأنتقم من وقاحتك أيها الياباني اللعين.. كان عليّ أن أقرأ مدّة

ساعتين انطباعاتك المثيرة للسخرية، حتّى أصل إلى هذه الدناءة الجميلة. لتذهب إلى الجحيم أنت وصديقك فرنكور، ثمّ إنه قام من دون أن يضيف ولو كلمة، وتأبط بسرعة الصفحات المخطوطة، ثمّ حيّاني وأدار مفتاح الباب وانصرف.

مـــلـــحـــق

إذاً! أصدقائي القراء، لكم أن تحكموا على مذكرات «كوان فو».
أنا أعتقد أنه إنسان صادق.. مدفوع بروح مخلصة، ولكنه مع ذلك يميل كثيراً إلى كره الناس.

هل ترغبون في أن أواصل حديثي عن الدكتور؟ لقد سافر إلى اليابان وأنا قلق على مصيره.. هناك شخص حسن الاطلاع قال لي: يُخشى عليه كثيراً من أن يُجبر على فتح جوفه حسب تقليد هاراكيري. لماذا؟ هل لأنه كشف عن سياسة بلاده؟ لا، هل لأن أفكاره متحررة جدّاً؟ لا. وسوف لن تتنبأ بالسبب أبداً! فاليابان تختلف كثيراً عن فرنسا! والسبب في محنة «كوان فو» في اليابان هو أنه بقي مختليا لثلاث ساعات مع راقصة الأوبرا!

انطباعات فيتناميين في أوروبا
المترجم بييتروس – تريونق – فينه – إكساق

استطاع صديقي.. الرحالة إلى الشرق، هنري بينوتو، أن يُقيم لي علاقة مع السفراء الفيتناميين، وخاصة مع مترجم البعثة السيد بييتروس تريونق–فينكي... وفي اليوم التالي لمجيئهم، ذهبت لزيارتهم في نزل كائن بنهج اللورد بايرون، حيث خيّم 60 شخصاً من الشرقيين الفقراء في وضع يتراوح بين الحسن والسيئ.

كان هناك شاب فيتنامي ماكر، قد قادني عبر غرف عديدة، حيث كمن في الزوايا جمع من الخدم كأنهم كلاب.. صعدت سلّما كانت درجاته وحيطانه تذكر بالإقامة التي أمضاها التايلانديون هنا منذ سنة خلت...

بعد رحلة دامت بضع دقائق.. طرق دليلي باباً انفتح في الحال، فاستطعت أن أتبين وسط سحاب سميك من الدخان ثلاثة أو أربعة فيتناميين كانوا متمددين على فرش للراحة، وقريباً منهم كان هناك شاب منحن على ما يشبه المقرأ.. كان مشغولا في حين انصرف إخوته إلى استهلاك نوع من المخدّر.

بدا لي مظهره مختلفاً عن مظهر رفاقه.. فقد كانت سحنته ضاربة إلى اللون الزيتوني، وكان أنفه أفطس بصفة تلفت الأنظار. أما شفتاه فكانتا كبيرتين، بينما كانت وجنتاه شديدتي البروز في حين كان

جبينه المسوّى والذي يبعث على الإعجاب يوحي بقدرات ناطقة في مجال الفلسفة.

أما عن لباسه، فقد كان بسيطا للغاية، وقد اقتصر على عباءة سوداء تشبه كثيراً الثوب الكهنوتي.

كانت تلف رأسه عمامة سوداء تكشف في أسفل دماغه عن خصلات من الشعر الأسود الضارب إلى الزرقة. أما ساقاه فقد انتعلتا بابوخاً يشبه كثيراً، السرموجة التي تنتعلها النساء.

وعند اقترابي من هذا الشاب، قام وصافحني بمودة ثم توجّه إليّ بعبارات الترحيب بلغة فرنسية صحيحة، وطمأنني بأنني لست غريباً عنه، ثمّ لفّ سيجارة طويلة ناولني إياها بعد أن بلّلها بشفتيه، فكنت أرسل في الجوّ وفي تجاوز لبعض أشكال التحرّج، دفعاتٍ من الدخان، تعانقت مع الدخان الذي ترسله سيجارة صديقي، وكل ذلك في جوّ من المرح.

ولم ألبث أن تفطنت لقدرات الشاب المترجم وذكائه الساطع وصفاته النبيلة وهو الذي سحرني للوهلة الأولى برقة عبارته، ومودته. كان يعبر بوضوح وكأنه نسي لهجته، كما كانت عيناه السوداوان والمتلألئتان تلمعان من حين لآخر، تبعاً لمجرى الحديث.

وقد كان من اليسير عليّ أن أدرك أن علوم الدين كانت تمثل اختصاصه المفضل. فقد كان يتحدث بها من دون ادّعاء، ولكن بنوع يستدعي الانجذاب بصفة لا تقاوم. إنه في حقل يحبه.. أي في

حقلٍ كدح فيه مدة طويلة، وعرفه بعمق وهو الذي لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره.

سألته: أأنت مسيحي كاثوليكي؟

فأجابني: نعم، لقد رباني مبشرو «بولوبنانق» على العقيدة الكاثوليكية، وقد كدت أصبح رفيقاً دائماً لهم، إلّا أن القدر أراد غير ذلك، فأنا متزوّج وربّ عائلة.

قلت له: وأنت مَدين بكل ما تعلمه للمبشرين؟

– تقريباً بكل ما أعرف. لقد علموني اللاتينية واليونانية منذ نعومة أظفاري، ثم إنني تعلمت الإنجليزية والفرنسية والإسبانية عن طريق الآباء في هذه الأمم الثلاث. وبطبيعة الحال فقد دعمت هذه المعارف بتعلم اللغة الصينية وبقدر صغير من السنكسريتية وبعض لهجات بلادي.

– قلت: هكذا! إذاً أنت تملك عشر لغات؟

– تقريباً، إلّا أنني أجد صعوبة في الحديث باللغة اليونانية.

أفترض ذلك جيّداً! فنحن لا نصادف في بلادنا المتعلمة ثلاثة من العلماء قادرين على الإجابة بيسر عن سؤال يوجه إليهم باللغة اليونانية.

– أنا لا أفهم شيئاً مما تقول. فالفرنسيون متعلمون جدّاً!

– الفرنسيون علماء تماماً.. هذه حقيقة، ولكنهم في موضوع اللغات مضرب الأمثال بجهلهم.. لن تجد مثلاً في فرنسا شخصاً

واحداً يتقن اللغة الفيتنامية!

أنت تدهشني حقاً! ولكنكم على أقل تقدير تتكلمون جميعاً اللغة اللاتينية، لأن صلواتكم تتمّ بهذه اللغة؟

آه، يا عزيزي المعلم.. أنت تدهشني أكثر بثقتك العمياء في مدى علمنا. فاللغة اللاتينية، لغة تثير الإعجاب ولكن التلاميذ الصغار يقضون نحو عشر سنوات في بهدَلتها، ثم يتخلون عنها حالما يكونون على استعداد تامٍ لفهم روحها.

وبقينا على هذه الحال نتجادل حول هذا الموضوع، حيث كان يعود إلى الحديث عن العلوم الدينية، إلى أن أطلعني على مخطوطٍ يحوي ما يقارب 1000 صفحة، خُطَّ بيد مطبقة ومدربة، قائلاً لي بتواضعٍ محبب لكاتبٍ شاب، ولكنه تواضع موسوم بإشارة خفيفة تكشف عن شعور بعزة النفس: إنه في إطار الاستعداد لرحلة إلى بلدٍ كاثوليكي، ومتعلم مثل فرنسا، سعى إلى أن يترجم إلى اللغة اللاتينية كتاباً كان قد ألفه باللغة الفيتنامية، مضيفاً أن كتابه اعتنى حصْرياً ببحث موضوع خلود المسيح عليه السلام.

ثمّ سألني: هل تعتقد أنني سأجد ناشراً لكتابي بسهولة؟

ترددت في الإجابة، وهذا ما أعترف به، لأنني سأحبط هذا المسيحي المتحمّس الذي كان سليم النية إلى حدّ أنه يفترض أن كتاباً عن المسيحية كتب باللغة اللاتينية يمكن أن يجد رواجاً عندنا.

ثمّ أجبته بأن بعض المجلات المتخصصة من الممكن أن تنشر بعض

المقاطع من كتابه.

ووقتها خطرت لي فجأة فكرة محزنة! فحياة المسيح التي كتبها هذا الفتى الشرقي بنوعٍ من الورع ذكّرتني بالكتاب الشهير الذي لا يزال حاملاً العنوان نفسه.

فهذا الشاب المتنصّر حديثاً، والذي ينتسب إلى بلد لا يزال في وثنيته، يقْدُم إلى أوروبا ومعه كتاب مستوحى من العقيدة الأكثر صفاءً، ليجد أن كل دور النشر موصدة أمامه، بينما يتنازع الناشرون على حيازة حق النشر لكتابٍ حوى كل أنواع الهجومات على مؤسس ديانتنا!

بعد ساعة من الحديث الشائق حول الشرق، والآداب الهندية، وآثار كامبودج، والقضايا الخطيرة للفيتناميين، استأذنت في الانصراف...

– فقال لي: لننتظر قليلاً فأنا أرغب في أن أعرّفك إلى أخي.

ثمّ إنه ربّت بألفةٍ على كتف شاب ضخم، ناهز الثانية والعشرين من عمره، كان ممدّداً على أريكة فقام بشيءٍ من البطء في الحركة يذّكر بالشرق... كان لأخ بييتروس من الوزن الزائد ما جعل منه شخصاً بديناً. وكانت حدقتا عينيه واللتان تتحركان داخل الغشاء المصفرّ لا توحيان إلا بالكسل. أما وجنتاه، وجبهته فكانت موسومة بالسفلس الزهري الصغير، وكان هناك نوع من الرحيق المحمّر الناتج من أكل التّبول قد تعتّق على شفتيه. ثم إنه عندما ردّ على عبارات المديح التي وجهتها إليه– على سبيل المجاملة– كشف لي عن منظر كريه لأسنانه،

لم أكن قد رأيته في حياتي. فقد كانت كل أسنانه عارية الجذور، وكان لونها داكناً مثل الحبر.

ثمّ إنني صافحت الصديق بييتروس، الذي رافقني إلى أسفل المبنى، حيث سألني ونحن نمشي عن رأيي في أخيه.

– فقلت له وقد أحرجني بسؤاله: لعمري إنني أصارحك بأنني لم أتثبت مليّاً من أخيك، وعليه فليس بوسعي إصدار حكم عليه.

– ردّ عليّ بنوعٍ من التدقيق اللطيف: يعني، إن أخي جميل جدّاً.

لقد كان الجواب الذي لم أكن أتوقّعه...

ثمّ واصل المترجم كلامه: نعم إنه شاب مرغوب فيه، ومحبوب جدّاً، وله جاذبية كبرى لدى النساء، وأنا أخشى عليه كثيراً من أخطار باريس!

كنت وأنا أستمع إلى هذا الكلام، أحاول أن أحافظ على رباطة جأشي، ولكن بشقّ الأنفس: هل كان هذا الفيتنامي المخيف عاشقاً عذرياً؟ وهل يكون بحق شاباً وسيماً؟ لقد بدا لي أن كل شروط الجمال قد نُسفت.

بعد تلك المقابلة بيومين أو ثلاثة، لاقيت بييتروس، فقد زارني في بيتي حيث قضينا معاً ساعات عديدة.. كان حديثه يتكرر ولكنه كان ودّيا.. أنيقاً وسهل العبارة، إلاّ أن مظهره كان يعطي انطباعاً بالحزن لم يستطع مداراته.

وفجأة قال لي: قد تكون لاحظت أنني جدّ منشغل، لأن ما توقعته حصل فعلاً.

– قلت: يا هذا! ماذا إذاً يا عزيزي المتعلم؟

– إذاً! لقد كان أخي واقفاً أمام النافذة عندما لمحته فتاة جميلة جدّاً.. كانت تسكن المنزل المقابل لمنزله، وأعتقد أنها كانت شغوفة به كثيراً.!

– قلت: وهل تعتقد ذلك؟

–ردّ المترجم الفيتنامي صاحب النية السليمة: أنا متأكّد من ذلك. لقد راسلته في هذا الصباح، ولما كان أخي لا يحسن اللغة الفرنسية، فقد اطلعت أنا على الرسالة وأجبت الفتاة نيابة عنه..

– وبمَ أجبتها؟

– ردّ بسرعة: لقد أعطيتها بعض النصائح.

– ولعلك احتفظت بمسودّة الرسالة التي بعثتها؟

نعم، وهي معي.

– أكون مسروراً جداً لو مكنتني من الاطلاع عليها .

فأجابني برباطة جأش ثابتة: بكل طيبة خاطر، ثم إنه أخرج من حافظة أوراق صغيرة، رسالة كانت مطوية على أربع، وقرأ بشاعرية ما فحواه تقريباً هذا:

«آنستي،

لا ينبغي أن نذعن للعواطف الأولى للقلب.. أنت فتاة جميلة،

وروحك طيّبة وبإمكانك أن تكوني السبب في إسعاد زوجٍ وعائلة..

يعلّمنا الدين أن نهدئ من النيران المتأججة فينا.. لقد قال الحواريون: إنّ الجنّة مخصصة فقط للذين يعرفون كيف يقاومون أهواءهم وميولهم.. فلتكن عزيمتك إذاً قوية، حتى تستطيعي السيطرة على هذا الحب، وهو في بدايته.. وزد على ذلك فإن أخي لا يستطيع أن يعطي حرمته لأحدٍ لأنه متزوج... بعد أيام قليلة سوف نعود إلى وطننا وسوف تنسينه يا آنستي، ولن يكون عليك أن تعاتبي نفسك، لأنك كدّرت هدوء عائلة.. لو لم يكن هذا الشاب الذي أحببتيه مرتبطاً بعهود الزواج المسيحي، لطلبت منك ربّما أن تحصلي منه على صفة زوجة ولاصطحبتينا إلى مناطقنا البعيدة.. عليك أن تهدئي بصفة مطلقة من همّ نفسك الشديد.

خادمك المحترم «بييتروس»

ماذا يمكنك أن تقول في هذه السذاجة العجيبة للمترجم الطيّب؟

لقد بدت لي سذاجته غريبة إلى حدّ أنني لم أتمالك نفسي من الضحك.. وتفهمون إلى النهاية معنى هذا الضحك أكثر مما يفهمه رفيقي ذو النية السليمة. وقد شرحت له أن هذه العاشقة الجميلة ما هي إلاّ فتاة متعة، وأن نزاهته الكبيرة هي التي أدت به إلى ارتكاب خطأ في تقدير الأمور كان مدعاة لحالة من التندر الكبير.

إذاً! ورغم جديتي في الحديث معه، إلا أنني لم أتمكن من زعزعة

ثقته النبيلة، فقد انصرف وهو يعتقد أن سحر جمال أخيه هو الذي ألهب مشاعر فتاة شابة ذات سلوكٍ حسنٍ جدّاً، وسيرة مستقيمة تماما.

بعد بضعة أيامٍ من ذلك، كنا نجوب ونحن متعاضدون، الجادات، والشوارع الكبيرة لباريس. فقد كنا ندخل هنا لمعبد، وهناك لقصرٍ، وأبعد من ذلك لمصنع، وأبعد بكثير لمقهى أو حفلة راقصة.

كان الشيء الذي يقع عليه ناظره يلهمه بصفة عامة، قليلاً من الكلام إلّا أنه كان لا يستطيع إخفاء شغفه بعجائب الصناعة الأوروبية وآثار عبقريتها.

ففي مكتبة الإمبراطورية كان يتفحص باهتمام حيّ، مجموعات من الكتب ذكّرته بالشرق.. كانت أسئلته ذكية جدّاً، وكانت ردوده السريعة تكشف عن علم عميق.. كان يتصفح المخطوطاتِ، ويراجع أرقام الصفحات بشعورٍ من رضا لهاوي كتبٍ يفوق الوصف. أنه ذلك الرضا الذي لا يمكن تقديره، إلّا إذا كنّا قد عشناه.. كان عالم لغة ذا باعٍ طويل في التاريخ البوذي.. لقد تحادث معه لبضع دقائق، وقد تسنى لنا ونحن نشهد هذه المحادثة أن نرى كيف أن المترجم الفيتنامي الشاب كان يُسدي دروساً للعالم الشيخ!

وإذا أردتم دليلاً قاطعاً على تبحّر الصديق «بيتروس» في العلم فلتستمعوا إلى هذا الطرفة:

عندما كان في حضرة أحد وزرائنا، سُئل صديقنا الفيتنامي عن

معارفه، فأجاب ببساطة أن علمه يحيط بمعرفة عشر لغات.

– فسأله الوزير باندهاش: وهل تعلمت عشر لغات؟ أنت إذاً تتقن عشر لغات.

– ردّ عليه بييتروس: نعم، ولكنني لا أحسن الحديث بها جميعاً.

– أجاب الوزير: ليس من الصعب تصديق ذلك، ولكن ألا تتكلم الكثير من اللغات؟

– نعم، ومن ضمنها اللغة اللاتينية.

وهل تستطيع الحديث باللغة اللاتينية بالسهولة نفسها التي تتكلم بها لهجتكم الخاصة؟

– لعمري، نعم وباليسر نفسه!

إذاً! هناك استعاد الوزير حديثه، وهو يضغط على نابض الطابع.. سأضعك حالاً في مواجهة عالم باللاتينية من الدرجة الأولى. لقد خرج للتوّ من ديواني وسأطلبه لتتحدّثا معاً.

بعد برهةٍ قصيرةٍ، دخل الغرفة رجل ناهز الخمسين من عمره.. يبدوعلى مظهره الفتور، وكان يحمل وشاحاً أحمر، وربطة عنقٍ بيضاء.. انحنى أمام موزع المقاعد والمناصب، واستعد لتلقي تعليمات سيده:

توجه إليه الوزير قائلاً: سيدي العزيز.. أنت أعلم الفرنسيين باللغة اللاتينية وهذا ليس من باب المديح، لأنه حقيقة. لقد كتبت بلغة الخطيب البارع، أحسن مما كتبه الكثيرون بلغتهم الأم، وأقدم

إليك شاباً فيتنامياً يزعم أنه يتكلم اللغة اللاتينية من دون أي ارتباك لسان، ولا أعرف خيراً منك حَكَماً في هذا المجال فإلى العمل، تحادثا لبعضكما.

مهّد الأستاذ العلامة لحديثه بجملة، ما كان لمؤلف كتاب «فرّينس» أن يأت بها، ثم تمططت الفترة بنوع من الرخاوة ولكن بتناغم.. كانت الكلمات تتآلف في ما بينها، وتداعب الأذن بلطفٍ، ثم إن «بييتروس» أجاب بجملة واضحة وجلية، قد تكون رشاقتها غير مؤكدة ومع ذلك فقد كانت قوية الحجة. وقد طلب من «بييتروس» الإجابة عن سؤال حول ما إذا كانت فرنسا- وهي معبد الآداب- فكرياً بلده، وبالتالي وطنه الحقيقي، فأجاب بسرعة: إن للإنسان وطنين: وطن العقل ووطن القلب، وإنه قد يؤثر الواحد، ولكنه يبقى مولعاً بالآخر، مشيراً إلى أننا إذا أخذنا في الاعتبار كل شيء، فإنه يتبين في أعماقه أنه ولد في نواحٍ من الشرق، وأن وطنه الحقيقي هو هناك.

ثم إن العلاّمة الفرنسي استعاد من الأساس الفكرة التي فصّلها نفسها، ولكن بنوعٍ من العسر، فخاض فجأة في موضوع آخر، وكان يتعثر في آخر الجملة.. كانت العبارات تعوزه وكان بادياً أن الترجمة من اللغة الفرنسية إلى اللاتينية لم يكن عقله يستوعبها إلاّ بمشقّة.. كان في بعض المرات ينتظر دقائق كثيرة قبل أن ينهي دوره في الحديث، ويبدو أنه كان يخاتل حتى لا يتسبب في خيبة آمال الوزير.

وبالمقابل، فقد كان المترجم الفيتنامي، يتكلم بعفوية لا متناهية..

كان يبدو بين الدقيقة والأخرى من المحادثة، وكأنه يكسب قوى جديدة.. كانت الطريقة التي اتبعها متلائمة كلياً مع طريقة مخاطبه. كما أصبحت عباراته دقيقة ودامغة، بينما تاه منافسه في تشدّق مبهم وملتبس.

وقد حصل في بعض المواقف أن أجاب لُغوي الغرب الشهير– الذي فقد ما لديه وبكل بساطة– باللغة الفرنسية عن سؤال وُجّه إليه باللغة اللاتينية من طرف بييتروس. كان الشاب الفيتنامي يسارع إلى الرد باللغة اللاتينية، ولكن إجابته لا تتم إلا باللغة الفرنسية!

عندها، التفت اللغوي الغربي إلى الوزير الذي شهد المسابقة الغريبة وقال:

هذا المترجم الشاب يستعير في بعض الأحيان، عباراتٍ غير أنيقة، ولكنه في الجملة يعرف جيّداً اللغة اللاتينية.

فأجاب الوزير بخبثٍ: نعم، ويبدو لي أنه يتقنها أكثر مما يتقنها العديد من لغويي فرنسا.

نعود إلى أحاديثنا.. ففي أحد الأيام وبينما كنا مارين أمام مطعم القصر الملكي، شاهدنا عروساً شابة تنزل من سيارة تابعة لحفلٍ ساهرٍ، ومن سُلّم عربة خَيْل بيض سلكت دُرجا واختفت. فقال لنا المترجم الذي يبدو أن مرأى العروس بهره: ما هذا؟ ما هذا؟ هل هذه امرأة متعة؟

– فأجابه أحد أصدقائنا: لا، أبداً! إنها شابة شريفة، وقد اشترت للتوّ زوجاً!

لم يفهم «بييتروس» أن الجواب ما كان في الأصل إلا مزحة، فعاد وسأل بلهجة حادّة:

إذا كان الرجال في فرنسا يُباعون، فإن العكس بالضبط هو الذي يحصل في فيتنام، فنحن الذين نشتري دائماً نساءنا.

- ماذا قلت؟ هل مازلتم عند هذا الحدّ من التخلف؟

فأجاب المترجم بسرعة وبسلامة نيته المعتادة: نعم، نحن نقدم لوالد الفتاة التي تعجبنا مبلغاً من المال، مقابل السعادة التي يوفرها لنا، وهذا أمر منطقي! ثمّ من بين الطريقتين في الزواج.. أي طريقتكم التي تقضي بألا تقبل المرأة زوجة إلا بمهر، وطريقتنا التي تفرض على الزوج شكلاً من دفع الأموال، فلعمري أنا أفضّل الطريقة الثانية. عندما تتزوجون من فتاة ميسورة، فإنكم أنتم الرجال الفقراء تصبحون عبيداً بفعلكم هذا، فالثروة ليست لكم وكذلك القوّة، لأن الثروة دائماً مقترنة بالقوّة. وهكذا فإن زيجاتنا في الأصل أصحّ من زيجاتكم.. إنها تشبه التجارة العادية، وهذا من العدل، ولكن هذا لا يؤثر على تفوقنا ولا يحرجنا في سلطتنا.

لم يكن بوسعي أن أضيف شيئاً على جواب الصديق «بييتروس» الذي قارب المنطق بشكل كبير. وخشية أن أكون بصدد الدفاع عن قضية مشكوك في كسبها، فقد غيّرت مجرى الحديث، وسألته ضاحكاً عن ثمن المرأة في فيتنام.

- فأجابني ببراعة:

– الأثمان متفاوتة!

– قلت: وهذا ما كنت أعتقده.

ثمّ واصل: المرأة الجميلة مثلاً يمكن أن يصل ثمنها إلى مئة ألف ساباك.

– قلت: والساباك من المؤكد أنه يعادل فرنكاً فرنسياً؟

– فأجاب: أوه، لا.. الفرنك الفرنسي يعادل ستمئة ساباك.

– قلت: إذاً فإن المرأة الفيتنامية الجميلة يمكن أن يصل سعرها إلى ثلاثمئة فرنك فرنسي؟

– قال: نعم، وهذا هو تقريباً السعر العادي، ولكن من الممكن أن تتمّ صفقات بأحسن من ذلك.

وهكذا فإن الكثير من مواطنينا الذين يرافقوننا، متزوجون رغم أنهم لم يتحملوا مثل ذلك المبلغ الكبير.

فالخدم يشترون المرأة بما يقارب إثني عشر فرنكاً. وأما أنا وأنت فلا نقبل بمثل تلك الزيجة.

– قلت: هذا أمر أفهمه، ولكن أليست هؤلاء النساء على أخلاق حسنة؟

– فأجابني: بصفة عامة هنّ كذلك، ولكن هذا متوقّف على الرقابة.

قلت: وربّ قائلٍ يقول: إن النقود لها في كل مكان قيمة متفق عليها، لذلك فإن الاثني عشر فرنكاً فرنسياً التي تمثل سعر نسائكم

الفيتناميات تعادل ربما ألفاً ومئتي فرنك فرنسي في أوروبا؟

– رد بييتروس ببراعة: أنا أميل إلى عدم تصديق هذه الفرضية، لأن أحد الأميرالات عندكم كان يستخدم مواطنينا مقابل ثلاثة من الفرنكات في اليوم. وبطبيعة الحال فإن وضع هذا المرجع السعري كان قد خضع إلى تفكير ناضج.

– قلت: وهكذا إذاً! فإن الفيتنامي الذي يعمل نحو أربعة أيام، يمكنه في اليوم الخامس أن يحصل على امرأة!

– أجابني بييتروس! إنها الحقيقة، غير أن العامل في الغالب يُثمل نفسه بالماء المسكّر، أو يشتري أسلحة بالمال الذي يكسبه!

نادراً ما شاهدت رجلاً أكثر إنصافاً من «بييتروس»، وخصوصاً عندما يكون في وضعية صعبة. فتربيته على الطريقة الأوروبية، وزمالته للفرنسيين مكّنتاه من حسن تقويم الحضارة المفترضة للفيتناميين. ولكن هل يستطيع قلبه أن يتنكر لوطنه؟ لا، لقد خاتل «بييتروس» بحذر بين عقبتين، إمّا أن يُحقّر أوروبا، وإما أن يُحقّر بلده. فهو معجب بأحدهما ومحب للآخر. إنها الطريقة المثلى التي استطاع أن يسلكها، ففكره على الرغم من تسامحه الكبير، كان يجد متعة في النقد الذي لا يكتسي أهمية فهو لا يُجرّح ولكن يداعب فقط، لأن طيبته قد تجرّه في بعض الأحيان إلى أن يسهو عن الاهتمام بالمصالح الأكثر حيوية بالنسبة إليه.

أتذكر كيف أنه كان يسخر كثيراً من سذاجة مواطنيه، الذين حملوا

على محمل الجدّ، الحيل الألف لعالم الجنّ الكبير «ببودان» والذين خرجوا وهم متيقنون بأن هناك سحرة يحومون فوق قاعة «لقالتي». وقد حكى لي أيضاً «بييتروس»، وكان ضاحكاً عن الرعب الذي عرف المشعوذ السيد «روبان» كيف يوهمهم به وهذه هي الحكاية:

كنّا في أعز زمنٍ للأشباح، والأطباق، والمظاهر غير المحسوسة. وقد أعلن السيد «روبان» نفسه قسّاً.. كان كل من في السفارة تقريباً قد قصد بيته الصغير في جادّة المعبد. ومن عادة الفيتناميين أن يتحملوا بشجاعة العمليات السحرية الأولية، ولكنهم يومها سيطر عليهم شعور حاد بالقلق، عند رؤية هذه الأشباح الحية التي كانت تتبدد بمجرّد هبّة. إلا أن هذا القلق كان يتحول إلى شعور بالدهشة عندما يشاهدون على الركح طيف أحد رفاقهم.

ولكم أن تحكموا على مدى جزعهم. فقد كانوا يبحثون حولهم عن أخٍ فلا يجدونه.. إنها إذاً لم تكن مجرد خدعة. فقد كانوا يعتقدون في حصول كمين، وكانوا على أهبة الانطلاق في عرض الشارع، وكانوا مع ذلك أيضاً مترددين وكأنهم صعقوا بهذه الضربة غير المتوقعة. بعد ذلك بدقيقتين، كانتا طويلتين بطول قرنٍ من الزمن، سمعوا وقع حركة مشي وراءهم، وانفتح باب خليتهم محدثاً ضوضاء.. لم يعد هناك مجال للشكّ.. سوف يقع اغتيالهم.. وقفوا وضغطوا تلقائياً على قبضة أسلحتهم.. وهم هكذا رأوا أشباح مواطنيهم الذين اعتبروهم في عداد المفقودين بصفة نهائية داخلة عليهم.

إذاً فـ«بييتروس» الذي ينطلي عليه كل شيء بسرعة كعادته، كان يحكي لنا هذا المشهد، وكلّه عقل ثاقب ومتين، مقسماً أنه لم يشعر بالخوف ولو لدقيقة واحدة!

ومن خلال أحاديثه، كان بالإمكان كما يقال، تلمّس الانطباعات التي يشعر بها الفيتناميون، ذلك أن مظهرهم بصفة عامة لا يكشف عن شيء، إذ إن المعروف عن الشرقيين هو قدرتهم على ضبط النفس التي لا تغلب. ومع ذلك فإن الاستقبال الذي حظوا به عند مجيئهم إلى فرنسا، لم يكن ليعكّر صفو حياتهم الظاهر، وهذا فعلاً ما تم بخصوص هذا الموضوع.

فعندما دخلوا ميناء «طولون» انطلقت اثنتا عشرة بطارية مدرعة للمشاركة في استقبال يليق بشرفهم.

لم يتمكن السفير من ضبط نفسه. لقد كان استقبالاً زاهياً.. أميريا ولكنه جهنمي أيضاً. فقد كاد يتحول إلى حلبة للموت. فعند استماعه إلى صوت الطلق الناري بدا وكأنه في حلم. أما الخدم فقد كانوا يتكورون في زوايا السفينة، وكأنهم كلاب في يوم عاصف.

وعندما غادر «بييتروس» إلى إسبانيا، بهدف الإبحار إلى الاسكندرية، وعدني بشيء يتناسب كلياً مع رغباتي. فقد وعدني بأن يسأل رفاقه عن انطباعاتهم، حول هذه الأحداث التي عاشوها، ويرسل لي ملخصاً لليوميات الكبيرة للسفارة.

هذا الملخص الثمين هو الآن بين يديّ. فقد كتب بأسلوبٍ بسيطٍ،

قليل الزخرفة والزينة، رغم أنه أسلوب شرقي، وها أنا في المحصلة أمدكم به:

يقول «بييتروس» في مذكراته: باستثناء باريس ومدريد، فإن الفيتناميين لم يكونوا راغبين في السفر إلى أي مكان آخر. لقد كانوا يكتفون بأداء زيارات مجاملة، للسلطات المحلية، وكانوا يرفضون الدعوات التي توجه إليهم. كما أنهم أهملوا دراسة البلدان التي مرّوا بها.

ويواصل «بييتروس»: أمّا أنا، فإنني لم أفرط في أية فرصة للتعرف ومشاهدة المناطق التي وطأتها قدماي، لأي مناسبة كانت. وبحسب المعلومات التي حصلت عليها سواء عن طريق محادثاتي معهم أم عن طريق قراءة صحفهم ويوميات رحلاتهم، فإنني أقدم لكم اليوم ملخصا حول ما يشعرون به، وما يعجبهم، وما يرغبون في نقله إلى بلدهم من أجل خير سكانه. ثم سوف أرسم لكم العوائق التي يمكنها أن تعطل أو تؤخر الرقي الحضاري، الذي ترغب إمبراطورية فيتنام في غرسه من الآن، بأكبر قدر من الصدق الممكن.

لم أغيّر شيئاً في هذه الجمل، التي وإن كانت غير دقيقة، فقد كان تعبيرها لائقاً. وسأواصل النقل الحرفي للمذكرات الغريبة للشاب المترجم:

لقد كان كل رفاقي، متفقين على أن أوروبا هي الآن متقدمة جدّاً حضارياً. إن رفاقي يعُون تفوّقكم في فنّ الرفاه، ويدركون أنكم

تتقدمون عليهم إلى ما لا نهاية في العلوم والصناعة. وقد اكتشفوا كيف تعالج القضايا السياسية عندكم، وكيف تُدار الأمور الإدارية. كما اطّلعوا على الإجراءات التي تتخذها الحكومات للصالح العام وقدّروها. فالمبدأ نفسه موجود عندهم، ولكن– وهذا ما يجب الاعتراف به– تطبيقه وتنفيذه كانا يتمّان بطريقة سيّئة.

لقد فهم رفاقي، معاني المساواة والأخوة والحرية والتي تمثل القاعدة المثلثة للحياة الاجتماعية عندكم ولاحظوا كذلك الأهمية التي تولونها للقوى المسلحة والميليشيات العديدة التي وإن لم يكن تعهدها ضروريا دائماً، فإنه يصبح في بعض الأحيان لا غنى عنه إضافة إلى دوره الجيّد في المحافظة على مجد الأمة. إن رفاقي اليوم وبفضلكم مقتنعون بالمزايا التي لا تحصى للفلاحة والتي تعتبر كما يقال مصدر حياة الشعوب. لنبحث الآن عما وقع عليه نظر رفاقي في فرنسا واستفزّ تفكيرهم في أوضاع بلدهم.

إنّ رفاقي، رغم شعورهم بعزّة النفس، يعتقدون أن هناك فارقاً كبيراً بين الغرب والشرق الأقصى.. إنهم لا يستطيعون إلاّ أن يعترفوا بأن بلدهم لا يزال في حالة جمود وفي مرحلته الأولى من التقدم وأنه لدى مقارنته مع أوروبا فإنه لا يزال حقاً متخلّفاً. وهم يتمنون رغم ذلك أن تقوم منافسة بين بلدهم وأوروبا، كما يتمنون أن يصلوا في يوم من الأيام إلى مستوى الرقي الذي بلغته الدول الأكثر تحضّراً.

المفاجآت التي أذهلت الفيتناميين وأثارت إعجابهم في أوروبا

تمثلت في الاطلاع على الأشغال العامة، والمباني الشاهقة الجميلة والصلبة، والطرق المتعهدة في كل الأنحاء، والسكك الحديدية الملائمة جدّاً للنقل، والتنظيم الإداري، ومؤسسات تعليم الشعب، والمعاهد المفتوحة في وجه الناشئة، والمؤسسات الخيرية، فكل هذه الأمور شدّت إليها الفيتناميين الذين لم يشاهدوا من قبل شيئاً من هذا القبيل. وهكذا إذاً، فإن الفيتناميين يمتدحون العادات والأعراف والأخلاق الأوروبية، كما أن نظافة، وجمال المساكن أعجباهم كثيراً. أما العادات المخالفة لعاداتهم، فإنهم لم يستسيغوها، ولكن بما أنهم يدركون أن الأوروبيين يمكن أن يكون لهم الشعور ذاته، تجاه بعض عاداتهم، فإنهم يتحفّظون جيّداً على تحقيرها.

من بين السفراء الثلاثة، فإن الأول هو الذي سَمَا ذكاؤه عالياً، فحكمه على الأشياء كان دائماً صائباً ونزيهاً.. إنه يحسن تقدير الأمور. وقد أظهر لي في معظم الأحيان رغبته الحيوية في فعل الخير والعمل على ترقية الشعب الفيتنامي. ورغم هذا فإنه عندما كان ينظر إلى بياض شعره كان يتحسّر، كأني به كان يتمنى لو خصص بقية عمره لمشاغل هادئة تملأ بالسعادة حياته في التقاعد. وقد ألححت عليه كثيراً ألاّ يفعل من ذلك شيئاً، وأنا آمل، نزولاً عند تحريضي له في أن ينجز جيّداً ما بدأ في فعله.

فبدافع حبّ بلده والحرص على استعمال معارفه المكتسبة أثناء رحلته إلى أوروبا، عقد العزم على أن يدخل في فيتنام ما يراه مفيداً

لبناء حضارة. لقد كان يسألني عن أفضل الطرق المؤدية إلى التغلب على الأفكار المسبقة وإلى إقناع الشعب بمزايا الفلاحة والصناعة. وفي رأيي إن أنجع الطرق تتمثل في إخراج الشعب من حالة الخمول وتعويده على العمل ثم بعد ذلك يمكن توجيه ذكائه إلى هذا الحقل من العمل أو ذاك.. إنني على قناعة في كل الأمور بأن أصعب الأشياء بداياتها.

تشاور السفراء في ما بينهم حول طريقة تشييد الأبنية الكبيرة، رغم أنهم لا يعرفون إن كان بوسعهم يوماً ما امتلاك أبنية بمثل علوّ الأبنية الموجودة في أوروبا. كما أنهم يقومون بدراسات، لمعرفة مدى صلابة الأرض التي ستقام عليها هذه الأبنية الهائلة، ويرسمون على الخريطة، المواقع الأكثر ملاءمة لإيجاد تجمّعات سكانية، ويتساءلون عن الطريقة التي يمكن أن تستغلّ بها الأراضي المتروكة وغير المزروعة وكيف يصبح لهم أسطول بحري وما الوسائل التي تزيد البلد صحة وأمناً.

لقد فهموا أن الحاجة هي التي كانت وراء تقدم أوروبا. فالكل كان مجبراً على كسب المال. فثروات أوروبا الساطعة من الذكاء كان الفضل فيها يعود إلى قلة الموارد التي في حوزة الأوروبيين أكثر مما يعود إلى استعداداتهم الفكرية ذات الحظ الكبير. بينما في فيتنام فإن الأرض غنية بالخيرات، لذلك أصبح العقل الفيتنامي الذي لا تستفزه ضرورة بذل الجهد، في وضع عطالة وكسل! لقد كان بالإمكان أن

نكون فكرياً في وضع أفضل لو ولدنا على أرض أقل غنى. وهذا لا يعني أن على المسؤولين تغيير فيتنام لتحقيق تلك الثروة من الذكاء، إذ إن هناك مجالاً لمحاربة قوى الكسل والخمول. لا يعني هذا الأمر فقط، أن رأي بعض العقول لا يزن كثيراً مقارنة برأي المجموعة فكم هناك من الخرافات التي يجب هدمها، وكم هناك من العادات التي ينبغي إصلاحها، وكم هناك من الأفكار المسبقة التي لا بدّ من إبطالها، وكم هناك من حالات الشعور بالعزة التي سوف تُجرح في هذه العملية الإصلاحية الشاملة؟

ثمّ إن هناك باب التكاليف، ولكنني سأتجاوزه لأمرّ إلى موضوعات أخرى.

لا شيء يفوق، تمسك موظفي فيتنام بعاداتهم. زد على ذلك أنهم لن يروا ولن يستمعوا أبداً للسفراء، فكيف سيتسنى لهم التشبع بأفكارهم؟ ولكن إذا ما افترضنا أن هؤلاء الناس من أمثال «توماس» سوف يصلون عن طريق وعي ذاتي إلى الاقتناع بمزايا الحضارة الأوروبية، فإنهم سوف يضعون على المحك المؤسسات التي يراد إدخالها، وسوف يزنونها بطريقة تجعل من الصعب على هذه المؤسسات أن تتجذّر في ربوعنا.. إنّهم لا يفكرون في مصلحة الشعب وإنما في إرضاء الملك وتلك هي الحقيقة.

إنهم يخدعون الملك وهم يهمسون بإطرائه.

هذا الواقع الذي نحن بصدد الإشارة إليه، هو أحد أسباب أمراض

الفيتناميين. فالولاّة لا ينقلون إلى الملك إلّا الأخبار الحسنة.. إنهم لا يحادثونه إلا حول الموضوعات التي تسعده. وهكذا فإنهم وخلافاً للقانون، يخفون أخبار الكوارث، ويحذرون من نشر أخبار الهزائم والمجاعات وقلة الحصاد وحتى الأوبئة.. لا شيء من هذه الظواهر يمكن أن تتضمنه التقارير السنوية التي يطلبها منهم الملك، حتى يكون على اطلاع على شؤون البلد.

فالولاة الفيتناميون، كلهم خشية من الملك، وهم مرتابون ومتابعون كالعبيد تقاليد محزنة. «إنهم قادرون على أن يسربوا ذباباً وعلى أن يرغموا الناس على حمل فِيَلة بأكملها».

والآن، كيف سينشرون عناصر هذه المعارف بالكتابة الرمزية المتضمنة عدداً لا يحصى من العلامات الصعبة جدّاً؟ أنا لا أنكر أنه يمكننا أن نتناول العلوم بهذه الأحرف، ولكن كم من العقبات ستواجهنا، وكم من الصعوبات، حتى نتمكن من قراءة وفهم ما تعبر عنه تلك الأحرف فهماً جيّداً! إذاً، لا بدّ لمن رغب في ذلك من أن يخصص لهذا الأمر على الأقل، كامل فترة شبابه ووقتها فلن يبقى له الوقت الكافي لينكبّ على الأعمال العلمية الأخرى.

لو كان بإمكانكم أن تفهموا مثلي عادات وأعراف بلادي فلن أكون في حاجة إلى الإلحاح، وبهذه الكيفية على العوائق التي تعترض أدنى التوجهات نحو التجديد.

يُمثل مواطنونا شعباً طيّباً جدّاً، ومقلداً إلى حد كبير، لكنه شعب

خامل تماماً. وأنا أُحَمّل المسؤولية في ذلك للحكومة التي لم تكلّف نفسها عناء تنشيطه وتوعيته. وأجازف بأن أعبّر عن الأمل في أنه ابتداء من اليوم لن يواصل في هذه الظلمة من التعطل وسوف يسير مثل العالم الغربي على طريق الرقيّ.

وينهي العالم المترجم رسالته بالعديد من الجمل الفلسفية المتعالية، والتي صيغت بنوعٍ من الغموض. أعتقد أنني توصلت إلى حل ألغازها، كما يحل عالم الأثريات الرموز الممحوّة عن الحجارة، غير أنني لا أحب أن أمدّكم بهذه الترجمة، لأنني لست متأكّداً كثيراً منها.. فكم من مؤرّخٍ للعصور القديمة كان له مثل حذري!

«بيتروس» ورفاقه هم اليوم في وطنهم، ولكنهم قبل مغادرة أوروبا أرادوا زيارة إسبانيا، وتقديم عبارات الولاء للملكة إيزابيل. فمن جهة، لا أحد ينكر الدور المهم الذي لعبته حكومة مدريد في الشؤون الفيتنامية. ومن جهة أخرى، يظل مفهوماً أن من مصلحة فيتنام المحافظة على علاقات صداقة من القوة الرئيسة في الفلبين. لقد كان إذاً لمندوبي فيتنام واجب مفيد وأنيق، يتعين القيام به في شبه الجزيرة.

لم تتم عودتهم إلى الشرق من دون عناء. فقد اعتقدوا للحظة أنهم كانوا لعبة لنوعٍ من القوى التي كانت تسعى بعنادٍ إلى شدّهم في نواحي البحر المتوسّط. إذ داهمتهم العواصف والأعاصير على حدود فرنسا وإيطاليا وألمانيا. ولم يكن ممكناً لسفنهم أن تستعمل موانئ الملاذ

من دون أن تتعرض إلى الزوابع المريعة، إلا أنّه بعد حالاتٍ من الجزع الحقيقي، استطاع السفراء أن يدخلوا الإسكندرية، ومنذ ذلك العهد كانت الأسماك أكثر حلماً معهم.

لمحة عن الكتاب

تدور وقائع الكتاب، الذي تم تأليفه عام 1864 حول مشاهدات، وانطباعات رحالة ياباني أجبرته ظروف الحياة على مغادرة بلده الأصلي، وقادته الأقدار إلى فرنسا طلباً للمعرفة التي كان شغوفاً بها منذ الصغر.

يصل الرحالة إلى فرنسا بعد مغامراتٍ، ومعاناة، حيث تعرف إلى شخص يصبح في ما بعد صديقه ودليله وترجمانه في المجتمع الفرنسي.. انه فرنكور.

سجّل الرحالة مشاهداته وانطباعاته، من خلال زياراته لأهم المدن الفرنسية، متعرفاً على أحوال المجتمع الفرنسي الذي كان يعيش حالة مخاضٍ وتحوّل نتيجة التغيرات التي حدثت في حياته الاقتصادية والسياسية، والاجتماعية والثقافية.

يتعرض الرحالة إلى موضوع العلاقات الاجتماعية في المجتمع الفرنسي وقتئذ، وإلى بروز قيم جديدة تُعلي من شأن المال في حياة الناس، وتعكس تراجع الأخلاق والشعور الديني لدى بعض الشرائح، نتيجة زحف الأفكار الليبرالية. كما يتعرض الكاتب إلى مكانة المشتغلين في حقل الأدب والفنون، وإلى مدى اعتراف المجتمع الفرنسي بأهل العلم وأصحاب المواهب، وذلك بروح نقدية.

وتسجّل ذكريات الرحالة أيضاً، العديد من الطرائف والنوادر

التي جاء بعضها رواية عن عالم الحيوان، وذلك بغرض إبراز نزعات الأنانية والابتزاز والطمع وحتى الجريمة لدى بعضهم.

كما يتوقف الرحالة، ليروي ما حصل له من انطباعات ترجمانه أثناء زياراته بصحبة دليله إلى المكتبات، والمتاحف، والمسارح، والمتنزهات الفرنسية، باحثاً عن المرآة العاكسة لهذه الفضاءات على المجتمع الفرنسي. كما كان انتباه الرحالة مركزاً أيضاً على تطور عادات الفرنسيين في الملبس، وفي تنظيم أوقات اللهو، وعلى ظهور المرأة الفرنسية في المجتمع، كما يتعرض لحياة الطلبة.

وفي كل هذه الانطباعات، يستشف القارئ آثار الصدمة بين القديم والجديد لدى رحالة قادمٍ من الشرق إلى أوروبا في منتصف القرن التاسع عشر. كما سعى الرحالة إلى تصوير الحياة في الريف الفرنسي، متعرفاً على انشغالات وقيم أهله.

ثم يختتم الرحالة انطباعاته التي سيزود بها مؤرخاً يابانياً معروفاً، كان قد طلب منه ذلك، بالاعتراف للمجتمع الفرنسي بجملة من المبادئ والقيم النبيلة من دون أن يسهو عن نقد بعض العيوب كالكبرياء والتحقير.

كما حفل الكتاب بالعديد من الحكم والأمثال الشعبية التي تعبر عن القيم السائدة في فرنسا في تلك الحقبة. أما في ما يخص الملحق المتعلق بانطباعات الفيتناميين عن أوروبا، فإن السؤال الحارق الذي ورد على لسان شخصيات القصة هو: لماذا تقدم الأوروبيون وتخلف

غيرهم؟ وهو سؤال طرحه رحالة آخرون، وفدوا في ذلك العصر إلى أوروبا من عوالم أخرى، ومنهم رحالة عرب ومسلمون. ولعلّه من سخرية التاريخ أن هذا السؤال لا يزال يطرح حتى يومنا هذا.

نبذة عن المترجم:

الطيب الـوراري: خريج مدرسة الدراسات التجارية العليا بقرطاج - تونس دورة 1980
يتابع الأحـداث الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ويكتب في المجلة الأسبوعية التونسية «رياليتي» «Réalités» .
تحمل مسؤوليات عدة في منظمات المجتمع المدني بتونس من خلال مهمته نقيباً سابقاً لموظفي الكهرباء والغاز بتونس.
ترجم للفرنسية دراسة عن القانون الجزائي المقارن.

انطباعات رحالة ياباني عن فرنسا

تدور وقائع الكتاب، الذي تم تأليفه عام 1864 حول مشاهدات، وانطباعات رحالة ياباني أجبرته ظروف الحياة على مغادرة بلده الأصلي، وقادته الأقدار إلى فرنسا طلباً للمعرفة التي كان شغوفاً بها منذ الصغر.

يصل الرحالة إلى فرنسا بعد مغامراتٍ، ومعاناة، حيث تعرف إلى فرنكور الذي يصبح في ما بعد صديقه ودليله وترجمانه في المجتمع الفرنسي.

حفل الكتاب بالعديد من الحكم والأمثال الشعبية التي تعبر عن القيم السائدة في فرنسا آنذاك. أما الملحق المتعلق بانطباعات الفيتناميين عن أوروبا، فإن السؤال الذي ورد على لسان شخصيات القصة هو: لماذا تقدم الأوروبيون وتخلف غيرهم؟ وهو سؤال طرحه رحالة آخرون، وفدوا في ذلك العصر إلى أوروبا من عوالم أخرى، ومنهم رحالة عرب ومسلمون. ولعلّه من سخرية التاريخ أن هذا السؤال لا يزال يطرح حتى يومنا هذا.







